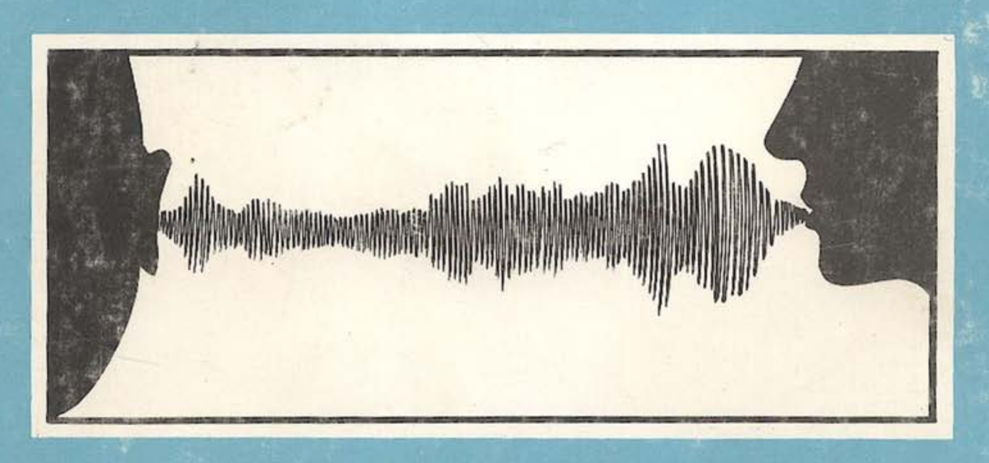
سلسلة
للدراسات اللغوية
رقم 1

توطئة لدراسة علم اللغة



التعاريف

تأليف
الدكتور التهامي الراجي الهاشمي
أستاذ علم اللغة بكلية الآداب - بالرباط

صورة الغلاف

نبذيبة لفظة ((اللسانيات))

توطئة لدراسة علم اللغة

التعاريف

تأليف

الدكتور التهامي الراجي الهاشمي
أستاذ علم اللغة بكلية الآداب . بالرباط

مقدمـــة

أقدم القارىء العربى هذا المؤلف الذى يفتتح سلسلة مـــن الدراسات اللغوية ، وهى سلسلة أقصد من ورائها سد الفراغ الخطير الذى يشتكى منه علم اللغة فى عالمنا العربى ·

ولقد حاولت أن أجمع فى هذا العدد كل مـــا من شأنه أن يعرف القارىء باللغة ، موضوع الدرس ·

ومن المعلوم ان علم اللغة بلـــغ بجميع فروعه ، فى هـــذه السنوات الاخيرة من الدقة والتشعب ، بفضل جهود أقطـــاب مبرزين فيه ، الى درجة لم يبق معها يعد فى عداد العلوم النظرية الصرفة ؛ بل أصبح علما دقيقا له قواعده الثـــابتة ونظريـــاته المتنـــاهية فى الضبط ، ومعادلاته السليمة التى تقربه من العلوم التجريبية وتبعده عن العلوم النظرية ·

الا أننا نحن العرب لابد ، لاسباب معروفة ، أن يكون لنا موقف خاص من هذا التقدم العجيب الذى أحرزه هذا العلم ·

لا جدال فى أننا نريد ، فى أقرب وقت ممكن ، اللحاق بالعالم المتقدم فى جميع الميادين ، وعلى الخصوص فى ميدان علم اللغة ·

لكن السؤال الذى يجب أن نضعه هو : كيف يمكن اللحاق

بهذا العالم ؟ أى ، ما هى أحسن السبل وأيسرها وأهمها للحاق بهذا العالم المتقدم .

سأحاول الجواب عن هذا السؤال ، وكأنه لا يتعلق الا بعلـــم اللغـــة .

وصل علم اللغة كما سبق أن قلنا الى أوجه ولم يصل ذروته هذه الا بعد أن اكتمل بنظريات دقيقة ، ومصطلحات معقدة ، وقواعد جامعة ، وتيارات عديدة متباينة ، ونظـــام من الرموز متـــداخل .

فهل الحكمة أن نبدأ نحن العرب بما انتهى اليه الغرب فى هذا الميدان لنقول اننا التحقنا بالغرب ، وأننا نسايره ؟

هل من الصواب أن نؤلف بادىء ذى بدء فى نحو الحالات الذى لم يظهر فى أمريكة الا سنة 1966 فقط بمقال Fillmore Toward a Modern والحالة أننا لم نمر كما مروا من مراحل لغوية دقيقة هيأت نحو الحالات هذا ؟ الحكمة أن ننشر دراسات حول النحو التوليدى التطبيقى الذى رأى النور أول ما رآه فـــى الاتحاد السوفياتى بفضل جهود العـــالم اللغوى S. K. Saumjan حوالى 1962 ، ونحن بعد مفتقرون الى المؤلفـــات التى عنهـــا تمخض هذا التيار ؟

أم هل من الصواب أن نصنف فى النحو التوليدى الذى لم يظهر فى أمريكة الا سنة 1957 مع نشر كتاب Syntactic Structures لـــ Chomsky بعد أن هيأت ظهوره تيارات لغوية أخرى لازال ميدان التأليف العربى لا يعرف عنها الا النزر القليل الذى لا يفيـــد ؟

أعتقد أنه من الحكمة أن نبدأ من النقطة التى منها انطلقوا لنرسى هذا العلم الذى نريده عصريا متطورا على أسسه الطبيعية السليمة ٠

لاشك أن النقطة التى بدأوا منها هى قواعد دير Port Royal التى وضعها سنة 1660 الراهبان Lancelot & Arnold والتى تعرف بـ « القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلا عقليا »

لا يخامرنى شك فى أننا ان بدأنا من هنا ثم تدرجنا مع التيارات والمذاهب التى تلاحقت دون انقطاع ما بين 1660 و 1977 ، نفهمها حق الفهم أولا ، ثم نعرب مصطلحاتها بعد ذلك، مطبقين ما يمكن تطبيقه منها على لغتنا ، وذلك بوضع الامثلة الملائمة لكل قاعدة ، أصبحنا قادرين على مسايرة كل ما يجد فى علم اللغة بجميع فروعه ٠ ونحن ، مع ذلك مطالبين ، وقت قيامنا بكل هذا ، بوضع لغة واصفة منسجمة ، نستعملها فى محاضراتنا وندواتنا ومؤلفاتنا ٠

من أجل ذلك كان لزاما على ، وأنا واحد من هذه الجماعة المسؤولة عن علم اللغة فى البلاد ، أن أبدأ من البدء ، فأقدم القارىء العربى توطئة تساعده على معرفة اللغة وتهيئه لتتبع الخطوات اللاحقة بيسر وبمردود كبير ٠

ومع ذلك فسيرى بعض الناس فى عملى هذا ما يبرر نقده ، وقد يقدمون على ذلك متسرعين أو متمهلين ٠ وسواء كان النقد نزيها أو مغرضا فسيكون مفيدا لى ولا شك ٠ أستفيد من النقد النزيه العلم والخبرة وأستفيد من النقد المغرض المعرفة بالناس٠

وسيكون منهم على صواب كل من رأى أن ما أقدمه الناس فى هذا الجزء ليس من علم اللغة الحديث وليس من علم اللغة القديم وانما هو خليط من ذا وذاك ٠

ذاك بالضبط ما أردت ، اننا نعرف مشكلتنا فى هذا الفن انها ليست شبيهة بمشكلة الفرنسى ولا بمشكلة الانجليزى ولا بمشكلة الاسبانى ولا بمشكلة الروسى ٠

أن انا نحن العرب فى هذا الباب علما اللغة قديما ، بل ركاما من هذا العلم ٠ فهل من الصواب أن نفرط فى هذا الكنز بدعوى ان جد جديد فى الموضوع ؟ أفلا يكون من الرصانة أن نحاول ربط الماضى بالحاضر ، سيما وأن هذا الماضى مشرق وضاء ؟

على عاتقنا نحن أساتذة علم اللغة تقع مسؤولية تعريف الاجيال الصاعدة بالنشاط الفيلولوجى لاجدادنا ، علينا أن نبين لهم المواطن التى توفقوا فيها والتيارات التى انجرفوا معها والمذاهب التى تخبطوا فيها ، ثم علينا بعد ذلك أن نقودهم لهذا الجديد ندرسه دراسة متأنية ، متينة مطبقينه على لغتنا ٠

نحن لا نرى كيف يمكن أن ننطلق من هذا الحديث ندرسه ونتدارسه ونستفيد منه ونحن بتراثنا فى هذا الباب جاهلون ٠

اننا لنؤمن ايمانا لا يتزحزح بأن التجديد غتل القديم بحثا٠

لهذا كان لزاما علينا أن نربط الحديث بالقديم ، ولنحقق ذلك أكثرنا من التعليق وبالغنا فى الاستطرادات ٠

وعلى كل فهذه ابنة من اللبنات الاولى فى ذلك البناء الذى نسميه اللسانيات و الذى بدأنا فى عالمنـــا العربى نسعى الـــى الشروع فى اقامته ، أقدمها القارىء الكريم .

الدار البيضاء 9 دجنبر 1976

المــؤلــف

الفصل الاول

في العصور الجاهلية
والعصور الاسلامية المتقدمة

1•1• لفظة « لغة » و « لسان »

لم تكن كلمة « لغة » تعني قديما ما تدل عليه الآن • لقد كانوا يعبرون عما نوحي به عندنا في «عبارة» (1) حديثة بكلمة أخرى هي « لسان » • « تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى في معظم اللغات السامية ، شقيقات اللغة العربية » (2) •

والقرآن نفسه لم يستعمل هذه اللفظة قط بالمعنى المعروف المتداول عندنا الآن ، وان كان قد استعمل مادة « ل•غ•و• » تارة بمعنى « الساقط من الكلام الذى لا طائل تحته »(3) كما تشهد بذلك الآية : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(4) • والمعنى « لا تسمعوا له اذا قرىء وعارضوه بكلام لا يفهم » (5) ، وتارة بمعنى « القول الباطل » شاهد على ذلك قوله تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون »(6) • وقوله : « واذا سمعوا اللغو عرضوا عنه

---

1 — استعمل لفظة « عبارة » وأعنى بها من الان فصاعدا Statement, Enoncé انظر الحواشي 43 و 107 •

2 — في **اللهجات العربية** الدكتور ابراهيم أنيس ، صفحة 17 •

3 — **الكشاف** للزمخشري ، الجزء الرابع ، صفحة 155

4 — الآية 26 من السورة الواحدة والاربعين ، **فصلت**

5 — **الجامع لاحكام القرآن** ، لابي عبد الله القرطبي ، الجزء الخامس عشر ، صفحة 356 •

6 — اية 3 من السورة 23 ، المؤمنون

وقالوا لنا أعمالنا ولكــم أعمالكم ، سلام عليكــم لا نبتغى الجاهليــن » (7) •

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقد استعملها فى معنى : « ما لا يحتاج اليه من الكلام » يشهد على ذلك قوله : « اذا قلت لصاحبك انصت ، والامام يخطب يوم الجمعه فقد لغوت » • أما رواية من سمع هذا الحديث عن الرسول ونقله للناس فهى « لغيت » •

فعلمنا من العبارتين ، عبارة راوى الحديث ، وهو أبى هريرة وعبارة الرواية العامــة أن الكلمة « لغــة » من مادة ثلاثية ثالث حروفها واو ، أو من مادة ثلاثية أيضا آخر حرف فيها يــاء •

واستعملت فى الشعر الجاهلى بهذا المعنى نفسه أيضا ، أى بمعنى « ما لا خير فيه من الكلام » • قال عبد الله بن رؤبة السعدى التميمى (8) •

وربّ أســراب حجيج كظم
عــن اللغا ورفــث التكلــم

واستعملها بعد هذا بزمــن ، وبنفس المعنــى المشار اليه أعلاه كتاب وشعــراء آخــرون ، منهم ، علــى سبيل المثال

---

7 — الاية 55 • من السورة الثامنة والعشرين ، القصص •

8 — هو أبو العثاء العجاج ، راجز مجيد ، قال الشعر فى الجاهلية • ولما بعث الله نبيه أسلم ، وهو والد رؤبة الراجز المشهور • عاش الى أيام الوليد ابن عبد الملك وتوفى حوالى 90 هجرية ، موافق 708 ميلادية •

الفرزدق (9) الذى قال :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ❁ اذا لم تعمد عاقدات العزائم

1·1·2 نصوص لغوية شاهدة على ذلك

كانوا فى هذه العصور المشار اليها يطلقون عما نعبر عنه نحن الآن بـ « اللغة » كلمة « اللسان » أو « لسن » •

قال الجوهرى (10) : « اللسن بكسر اللام : اللغة • يقال لكل قوم لسن ، أى لغة يتكلمون بها (11) » • مميزا بين الصيغتين : « اللسن » بكسر فسكون وهى التى عنده بمعنى « اللغة »، ولا تشاركها ، فى نظره ، أية صيغة أخرى فى ذلك، وبين « اللسان » ، بكسر ففتح ممدود ، وهى عنده : « جارحة

9 — هو أبو الحسن همام بن غالب بن صعصعة التميمى الشهير بالفرزدق ، له الاثر العظيم فى اللغة العربية ، وهو صاحب الاخبار المشهورة مع جرير والاخطل • ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر • كان شريفا فى قومه ، عزيز الجانب • يظهر دوره الخطير فى ميدان اللسانيات فى هذا القول المأثور : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس • توفى سنة 110 هجرية (728 ميلادية) •

10 — اسماعيل بن حماد الجوهرى ، أبو نصر • أصله من فاراب ، قصد العراق صغيرا ، زار كلا من الحجاز التى تقلب طويلا فى باديتها وخراسان ونيسابور• وكان الجوهرى أول من حاول « الطيران » ومات فى سبيله • لقد صنع جناحين من خشب وربطهما بحبل وصعد سطح داره ثم نادى فى الناس : « لقد صنعت ما لم أسبق اليه وسأطير الساعة • » وبعد أن احتمع لمشاهدته جرب جناحيه الخشبين فخانه اختراعه فسقط الى الارض قتيلا • مات عام 393 هجرية ، موافق 1003 ميلادية انظر ترجمته فى الاعلام للزركلى الجزء الاول ، صفحة 309 وفى المراجع التى يعطيها هناك • ترك لنا عملا لغويا عظيما هو « الصحاح — تاج اللغة وصحاح العربية » طبع بالقاهرة عام 1375 هجرية موافق 1956 ميلادية على نفقة السيد حسن الشربتلى، وبمقدمة فى جزء منفصل عن الاجزاء الستة الاخرى لعباس محمود العقاد ، وهى أحمد طعمة مدونة الصحاح • وله ، فى نشاط اللغوى، أيضا تأليفان آخران هما « العروض » و « مقدمة فى النحو »

11 — الصحاح ، الجزء السادس ، صفحة 1295 ، العمود الثانى ، السطر 16 •

الكلام ، وقد يكنى بها عن الكلمة ، فتؤنث حينئذ (12) » .

نبنى هذا التفسير اللغوى الاندلسى ابن سيدة(13)فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى ، لكن بتحوير قليل . لقد شرح الصيغة « اللسان » لا ، بـ « كلمة » كما فعل قبله الجوهرى ، وانما بـ « لغة » . قال : « اللسان » مؤنث لا غير » (14). وهو تطور مهم لحق مدلول كلمة « لسان » فى ظرف قصير لا يزيد على 65 سنة الفاصلة بين العالمين اللغويين الجوهرى وابن سيدة (15) (انظر 1.1.4.)

---

12 — نفس المصدر ، صفحة 2195 ، العمود الاول ، السطر 17 .

13 — على بن اسماعيل من أكبر علماء اللغة بالاندلس . قال ابن سعيد المغربى منه : « لا يعلم بالاندلس اشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ، ولا أعظم تواليف تفخر مرسية له أعظم فخر ، طرزت به برد الدهر ، وهو عندى فوق أن يوصف بحافظ أو عالم . » (المغرب فى حلى المغرب ، الجزء 2 . صفحة 259) ولد عام 398 هـ (1008 م) وتوفى سنة 453 (1066 م) . ترك لنا فى ميدان علوم اللغة الذى يهمنا كتاب المخصص الذى طبع لاول مرة بمصر بالمطبعة الاميرية فى 17 جزءا عام 1316 موافق 1899 ميلادية وانتهى من طبعه عام 1321 هجرية موافق 1964 ميلادية . ينقسم المخصص الى كتب ، كانت نية ابن سيدة أن يبحث كل كتاب منها فى موضوع محدد . وينقسم كل كتاب الى أبواب تباين طولا وتعقد كل باب الحديث عن فكرة تعبر عنها مفردات . يحتوى هذا الكتاب زيادة على ظاهرة التفاسير المتعلقة باللفظة الواحدة على تحقيقات لغوية وتفسيرات مورفولوجية لا يستغنى عنها أي دارس للغة العصرية . كما ترك لنا كتاب المحكم الذى ظهرت منه بعض الاجزاء وهو معجم مرتب وفق المخارج ع.ح.هـ.ق.ك.ج.ش.ض.ص. س.ز.ط.ظ.ذ.ث.ن.ف.م،و،ألف.و لقد اتبع نظام العين فبدأ فى كل حرف بالثنائى المضاعف الصحيح ثم الثلاثى الصحيح فالثنائى المضاعف المعتل الخ .

كان ابن ضريرا مثل ابيه ، نظم الشعر مدة . وانقطع الامير مجاهد العامرى فى « شرح ما شكل من شعر المتنبى » وكذا كتاب فى شرح حماسة أبى تمام سماه « الانيق » وهو فى ست مجلدات .

14 — « المخصص » السفر الاول ، صفحة 154 ، السطر 18 .

15 — مات الجوهرى سنة 393 ومات ابن سيدة سنة 458 .

لقد كان الجوهرى ، وهو يشرحها بما شرحها به يعتمد على قرائن يستمدها من التراث الذى سبقه . فأعشى باهلة (16) ، مثلا لم يستعمل كلمة « لسان » بمعنى لغة ، وانما استعملها ، فى شعره وهو يقصد بها « الكلمة » و « اللفظة » ، « المفردة » . قـــال :

انى أتتنى لسان لا أسر بها   من علو لا عجب منها ولا سخر

1.1.3. وشواهـــد مـــن القـــرآن

ووردت لفظة « لسان » بكسر ففتح (17) فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم (18).

ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه (19) . وهو تأويل أكده

16 — عامر بن الحارث بن رباح الباهلى من همدان من شعراء الجاهلية وكان يعرف بأبى قحفان . مات أبوه « المنتشر بن وهب » فرثاه بأجود ما قال فكانت القصيدة الرائية الجميلة (انظرها برمتها فى خزانة البغدادى الجزء الاول ، صفحة 24 و 25) .

17 — اعتمادا على قراءة الجمهور ، وهى هنا القراءة التى قرأ بها البدور السبعة جميعهم .

18 — الآية 4 من السورة 14 « ابـــراهيـــم »

19 — **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل** للامام محمود بن عمر الزغشرى . الجزء الثانى ، صفحة 420 ، السطر الخامس وانظر ايضا « **البحر المحيط** » الجزء الخامس الصفحة 405 ، السطر 9 .

ابن عطية (20) فى كتابه « المحرر الوجيز فى تفسير كتاب الله العزيز (21) • حين قال : « اللسان فى هذه الايــة يراد بــه اللغــة » (22) •

اذا رجعنا الى الامهات فى القراءات القرآنية لاحظنا أنهم كانوا يعبرون عن لفظة « اللغة » بصيغ أخرى من مادة «لسان» هذه ؛ وهى صيغ قرىء بها فى هذه الآية التى نتحدث عنها مما يؤيد ان هذه المفردة كــانت شائعة بهذا المعنــى فى الجزيرة العربية بمختلف قبائلها •

---

20 — هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى ، نسبة الى محارب قيس ، فقيه أندلسى ، مفسر من أهل غرناطة ، وكان يقول الشعر أيضا . وولى مدة قضاء المرية . له « **المحرر الوجيز فى تفسير كتاب الله العزيز** . » وسنتحدث عنه فى حاشية أخرى . و « برنامج » فى ذكر مروياته وأسماء شيوخه . ولد عام 481 هجرية موافق 1088 م . وتوفى بلورقة عام 546 هجرية وقيل قبل ذلك بخمس سنوات أى فى عام 541 هجرية موافق 1148 توجد ترجمة له فى القلائــد ابتداء من صفحة 239 الى 247 كما توجد فى البغية للسيوطى ، صفحة 49 وفى كتاب الصلة لابن بشكوال صفحة 835 وفى غيرها من كتب التراجم .

21 — « **المحرر الوجيز فى تفسير كتاب الله العزيز** » هو كتاب فى التفسير عظيم ألفه ابن اعطية المشار اليه فى الحاشية رقم 20 . توجد نسخة منه رائعة الجمال فى الخزانة العامة بتطوان تحت الارقم 629 ، 630 ، 631 ، 633 . كمــا توجد فى خزانة الجامع الكبير بمكناس نسخة خطية نفيســة من الجزء الثالث من هذا التفسير تحت رقم 120 ، وهى نسخة غاية فى الاهمية نظرا لانها تحمل وثيقة التحبيس التى كتبها المحبس نفســه ، السلطان أحمد المنصور الذهبى . الا أن هذا الحبيس وقع لجامعة القرويين ، وتسرب هذه النسخة وحدها دون الاجزاء الاخرى الى الخزانة الجامع الكبير بمكناس من الغرابة بمكان .

كما وجد جزء من هذا التفسر مبتور الاول والاخر وبورقتن داخلة فى الخزانة العامة للكتب والوثائق بالمغرب تحت رقم (20 د) وجزء آخر موضوع بالخزانة نفسها تحت رقم (1591 د) ونسخة تامة من هذا التفسير فى نفــس هــذه الخزانة ، لكن فى مرتق الاوقاف تحت رقم (186 ق) وهى خمسة أجزاء .

وتوجد نسخة من تفسير ابن عطية فى Biblioteca Nacional de Madrid تحت رقــم 4874 .

22 — انظر تفسير ذلك فى سورة ابراهيم فى النسخة الخطية المحفوظة بمدريد تحت رقــم 4874 .

نعرف مثلا أن أبا السمال (23) وأبا الجوزاء (24) وأبا عمران الجونى (25) قرأوها «لسن» بكسر فسكون، وهى صيغة موافقة لما رأيناه عند الجوهرى وابن سيدة (26) •

ونعلم أيضا أن أبارجاء (27) وأبا المتوكل (28) والجحدرى (29) قرأوها « لسن » بضم اللام والسين ، وهو جمع « لسان » ، وهى قراءة لم تأت بأى جديد بالنظر الى الصيغة •

---

23 — هو قعنب بن أبى العدوى البصرى ، المعروف بأبى السمال (بفتح السين وتشديد الميم بعدها لام) قارىء شد عن الجماعه ، وان كان صادف الصواب فى كثير من شذوذه • واعتبر أن هذا الشذوذ مفيد للغاية فى ميدان اللسانيات لانه يطلعنا على كثير من الخلافات اللهجية التى سادت الجزيرة العربية قبل أن توحد لغة واحدة ، أو على أدق تعبير قبل أن تصير ، بأوجهها المتعددة لغة تدعى أنها « فصيحة » و « منسجمة » •

توجد ترجمة ابن السمال فى « **غاية النهاية** » لابن الجزرى ، فى الجزء الثانى ، صفحة 27 • هذا ولقد كنت جمعت كل أقراءاته الشاذة فى مقالى المنشور بمجلة دعوة الحق ، العدد السابع من السنة السادسة عشرة ، رجب 1394 ، موافق غشت 1974 ، صفحة 66 ، الحاشية 10 وكنت قلت فيه : « ان جمع القراءات الشاذة لابى السمال فى مكان واحد يعد مكسبا عظيما فى ميدان دراسة اللهجات العربية القديمة • ولا يخامرنى شك فى أن دراستها دراسة فقهية دقيقة ستطلعنا على كثير من أسرار اللهجات العربية التى لا زالت ، بكل أسف تحمل فى طياتها أسرارا • »

24 — هو أوس بن عبد الله الربعى ، أبو الجوزاء البصرى ، روى عن عائشة وابى هريرة وابن العباس ، توفى عام 83 هجرية ، أنظر ترجمته فى « **التهذيب** » صفحة 35 • ق

25 — هو عبد المالك بن حبيب تابعى يروى عن جندب بن عبد الله وأنس بن مالك وغيرهما • والجونى التى ينسب اليها أبو عمران أتت من الجون وهو بطن من الازد • تقرأ (بفتح فسكون) • أنظر « **اللباب فى تهذيب الانساب** » لعز الدين بن الاثير الجزرى ، الجزء الاول ، صفحة 312 ، السطر الثامن عشر •

26 — أنظر (1 • 1 • 2) • ق

27 — هو عمران بن تميم البصرى ، التابعى الكبير ، أبو رجاء العطاردى ، كان مخضرما وأسلم فى حياة النبى ولم يره • عرض القران على ابن عباس وكان تلقنه عن ابى موسى • ولد قبل الهجرة باحدى عشر سنة وتوفى عام 105 هجرية • توجد ترجمة له فى الجزء الاول من **غاية النهاية فى طبقات القراء** صفحة 604 وفى الجزء الاول من التذكرة ، صفحة 62 •

28 — لم استطع أن أميزه من بين المتوكلين العديدين الذين اعرفهم •

29 — هو عاصم بن أبى الصباح العجاج الجحدرى البصرى ، مات عام 128 هجرية • أنظر ترجمته فى **طبقات القراء** لابن الجزرى ، الجزء الاول ، ص 349 •

1•1•4• تحليل علمى حديث لهذه اللفظة من عالم لغوى قديم

عندما تلنا ان ابن سيدة تبنى ما ذهب اليـــه الجوهرى فى لفظة « لسان » (أنظر 1•1•2) قصدنا بذلك أن العالم اللغوى الاندلسى استناد مما كان سائـــدا فى العصرى الذهبى للنشاط الفيلولوجى عند علماء اللغة الفطاحل من أمثال الجوهرى الذى جعلته ، بشكل تحكمى فقـــط ، ممثل هذه الحقبة الزاهرة التـــى بلغ العمل اللغوى عند العرب فيها أوجه • ذلك آنـــه ليست لنـــا أية حجة ، من أى نوع كانت يمكن آن نعتمد عليها لنزعـــم أن ابن سيدة لم يأخذ عن معاصر الجوهرى آبى الفتح عثمان ابن جنى الذى تطرق للفظة يدرسها وكأنه عالم معاصر استفاد من دروس F. de Saussure ومـــن أتى بعده • قال ابن جنى :

« قرأ أبو السمال : « بلسن قومه » •

قال أبو الفتح : حكى أن بعض أصحابنا قال : دخلت على أبى السمال وهو ينتف شعر اسبه وهو يقرأ : « وما أرسلنا من رسول الا بلسن قومه » ، فاللسن واللســـان ، كالريـــش والرياش : فعل وفعال بمعنى واحد • هذا اذا أردت باللسان اللغة والكلام • فان أردت بـ ه العضو فلا يقال فيه : لسن ، انما ذلك فى القول لا العضو • وكأن الاصل فيهما للعضو ، ثم سموا القول لسانا ، لانه باللسان ، كمـــا يسمى الشىء باســـم الشىء لملابسته أياد ، كالرواية (30) والظعينة (31) ونحوها (32) »•

30 — الرواية : الدابة يستقى عليها ، وتسمى بها المزادة فيها الماء (حاشية محقق المحتســب) •

31 — الظعينة : الهودج ، وتسمى بها المرأة ما دامت فى الهودج (حاشية محقق المحتســب) •

32 — المحتسب فى تبيين وجوه شواذ الاقراءات والايضاح عنها لابى الفتح عثمان ابن جنى الجزء الاول ، صفحة 359 ، السطر الثالث •

1•01•6 عــود الى الشاهد القرآنى

وهناك قراءة أخرى لا نعرف بالضبط من قرأ بها لاننا لم نر أحدا عزاها ، وهذه القراءة هى «لسن» بضم فسكون (33)• وهذه الصيغة ليست عندى الا جمعا لكلمة لسان « لسان » • ذلك أنه سبق أن بينت أن « فعــل » (بضم فسكون) هو جمع عند بنى تميم لكل فعلة يقول فيها أهل الحجاز « فعل » (34) (بضمتين • كجمع « حمار » مثلا ، تقول تميم فيه « حمر » ويقول أهل الحجاز « حمر » (35) وكجمع « فراش » يقول غيه هؤلاء وأولئك « فرش » و « فرش » (36) •

33 ــ أنظر « **البحر المحيط** » الجزء الخامس ، صفحة 405 ، السطر الثالث عشر •

34 ــ أنظر تفصيل ذلك فى بحثى « **القراءات القرآنية واللهجات العربية** » المنشور فى مجلة « دعوة الحق » ، العدد العاشر ، السنة الرابعة عشرة ، ذو الحجة 1391 (موافق يناير 1972) صفحة 38 العمــود الاول ، السطـر الثانى عشـــر •

35 ــ عدت لهذه الظاهرة فبينتها أكثر حين الحديث عن اللفظ القرآنى « الحبك » (بضمتين) فى قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك » (الاية 7 من السورة 51 ، الذاريات) وكنت قلت آنذاك : « تقرأ على طريقة النطق عند تميم حين ينطق بها ساكنة الباء ، وهى حجازية حين تقرأ بضمتين متتابعتين ، فأما الذين يقرأونها على طريقة نطق بنى تميم أى بضم فسكون ، فهم أبــو مالك الغفارى (ترجمته فى أسد الغابة ، الجزء الخامس ، صفحة 288 ؛ وأبو حيوة (توفى سنة 203 هجرية ، وترجمه فى النهاية ، الجزء الاول ، صفحة 325) وابن أبى عبلة (توفى عام 151 هجرية ، ترجمته فى الطبقات الجزء الاول صفحة 19) وأبو السمال (سبقت الاشارة اليه فى الحاشية 23 فى 1 •1 •3)• وقرأ الجمهور بضمتين متتابعتين على طريقة لهجــة أهــل الحجاز• » أنظر البحث : « القرآت القرآنية واللهجات العربية » الحلقــة الرابعة ، المنشورة فى مجلة « دعوة الحق » العدد التاسع والعاشر ، السنة الخامسة عشرة صفحة 69 ابتداء من العمود الاول •

36 ــ أنظر كذلك « الكتاب » لسبويه ، الجزء الثانى ، صفحة 198 ابتداء من السطر العــاشــر •

2.1 لفظة «لغة» و «لهجة»

لرب سائل يسأل : « فماذا كانوا لا يستعملون لفظة « لغة » للمعنى المتداول عندنا الآن ، فلاية فكرة خصوصها اذن ؟ •

لقد كانت لفظة « لغة » تعنى عندهم « لهجة • كذا استعملها أمام النحاة سيبويه (37) فى كتابه • قال فى الباب الذى سماه : « هذا باب ما أجرى مجرى ليس فى بعض المواضع بلغة أهـل الحجاز ثم يصير الى أصله » : « ومثال ذلك قوله عز وجل « ما هذا بشرا »(38) فى لغة أهل الحجاز • وبنو تميم يرفعونها الا من عرف كيف هى فى المصحـف » (39) •

وقال وهو يتحدث عن « لدن » (40) : « كما أن لدن لها مع « غدوة » حال ليست فى غيرها تنصب بها ، كأنه ألحق التنوين

---

37 — هو أبو بشر عمرو بن عثمان امام البصريين وحجة النحويين وهو من سلالة فارسية • ولد ونشأ بقرية من قرى شيراز (مدينة فى بلاد فارس جنوبا ، بناها محمد بن القاسم بن أبى عقيل مات ببساوة ، بلدة قريبة من مسقط رأسه سنة 180 هجـريـة •

38 — والاية بأكملها هى : « فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهـن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم • » (الاية 31 من السورة الثانية عشرة ، يوسف)

39 — **الكتاب** ، الجزء الاول ، صفحة 28 ، السطر ما قبل الاخير •

40 — نفس المصدر ، الجزء الاول ، صفحة 107 ، السطر الثامن •

فى لغة من قال « لد » وذلك توللك من « لد غدوة » كأنه أسكن الدال ثم فتحها • كما قال : « اضربن زيدا ففتح الباء حين جاء بالنون الخفيفة والجر فى « غدوة » هو الوجه والقياس • »

وقال ، وهو بصدد شرح وقوع الاسماء ظروفا ، وذلك مثل « اليوم وغدا : « فمن ذلك قولك متى يسار عليه وهو يجعله ظرفا فيقول « اليوم » أو « غدا » أو « بعد غد » أو « يوم الجمعة » •••« وكما تقول فى سعة الكلام « الليلة الهلال » وانما الهلال فى بعض الليلة ، وانما أراد « الليلة ليلة الهلال » ولكنه اتسع وأوجز وكذلك هذا أيضا • كانه قال سير عليه سير اليوم • والرفع فى جميع هذا عربى كثير فى لغات العرب على ما ذكرت لك من سعة الكلام • »

وقال فى الباب بعده (42) : « وتقول : « اذا كان غد فأتنى ، واذا كان يوم الجمعة فالقنى » فالفعل لغد واليوم كقولك : « اذا جاء غد فأتنى »• وان شئت قلت : « اذا كان غدا فأتنى ، وهى لغة بنى تميم » •

يتضح من هذه النصوص (43) القصيرة التى نقلتها أن امام النحاة لا يعنى باللفظة « لغة » فى حالتيها الجمع والافراد ، الا اللهجة ، وليس غير •

ولقد تتبعت سبويه مع طول كتابه — وليس للكتاب ، بكل أسف ، حتى الآن فهارس ، تساعد الباحث على دراسة هذا

41 — نفس المصدر ، الجزء الاول ، صفحة 110 ، السطر الرابع •
42 — نفس المصدر ، الجزء الاول ، صفحة 114 ، السطر الرابع عشر •
43 — استعمل مفردة « النص » وأعنى به texte وهذا ما سألتزمه • أنظر الحاشية رقم 1 السابقة لئلا يلتبس الامر •

المصنف العظيم (44) — فألفيته يستعمل اغذاذة « لغة » مكان مـا نطلق عليه الآن « لهجة » ايتحدث عن 23 منها ، درسها فى كتابه دراسة علمية دقيقة ، معززا هذه الدراسة البالغة الاهمية بأمثلة رويت له من أفواه رجال هذه القبائل .

---

44 — من المعلوم أن كتاب سبويه فى طبعته الكثيرة التداول الان بين الناس والمطبوع الجزء الاول منها بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق سنة 1316 هجرية والجـزء الثانى بنفس المطبعة سنة 1317 هجرية لا يحتوى على فهارس ، ومـن هـذه الطبعة أخذت وسآخذ جل شواهدى علما منى أنها هى التى يتوفر عليها طلابى والقراء من الناس ، وقد انقل من طبعة أخرى الا اننى فى هذه الحالة أشير الى ذلك وأنص عليه .

أما الطبعة الاولى للكتاب فقد أنجزها المستشرق الفرنسى Hartuig Derenbourg المزداد بباريس سنة 1844 والمتوفى بها سنة 1908 المحقـق **لديوان النابغة** ولـ « **كتاب الاعتبار** » لاسامة بن منقذ ولـ « **النكت المصرية لعمارة اليمنى** » و المنجز « **فهرس المخطوطات العربية فى الاسكوريال** » . قدم لكتاب سبويه وطبعه فى جزأين فى باريس . ظهر الجزء الاول من هذه الطبعة سنة 1881 فى 460 صفحة مع مقدمة بالفرنسية فى 44 صفحة وظهر الجزء الثانى سنة 1889 بمقدمة بالفرنسية فى صفحتين .

أما الطبعة الثانية فقد أنجزت فى كلكتا سنة 1887 أى قبل تمام ظهـور الطبعة الاولى بسنتين صححها الاستاذ كبير الدين أحمد وهى فى 1105 صفحة من القطع المعتاد ولكنها أيضا خالية من الفهارس ولم تستفد طبعا بما أنجز فى باريس .

أما الطبعة الثالثة فهى الترجمة الالمانية الكاملة لكتاب سبويه فى نصـه المحقق من طرف الاستاذ Derenbourg . قام بهذه الترجمة أستاذ بجامعة لوكسمبـرج يسمى D. gustave John ولد سنة 1837 وتوفى سنة 1917 تلقى علوم اللغة العربية على الاستاذ فلايشر وستنفلد وغيرهما . من أعماله التى تذكر فتشكر ، نشره لشرح المفصل لابن يعش وطبعه فليبزيج من سنة 1882 الى 1886 م . بدأت تظهر هذه الترجمة مع مطلع سنة 1895 الى أن تمت سنـة 1900 .

أما الطبعة الرابعة فهى طبعة بولاق التى أشرت اليها فى صدر هذه الحاشية وهى طبعة مذيلة بنص كامل لشرح أبيات الكتاب للاعلام الشنتمرى المسمى « تحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الادب ، فى علم مجازات العرب » .

ولقد اعتمد المشرف على هذه الطبعة السيد « محمود مصطفى » على طبعة باريس لتصحيح ما يجب تصحيحه مثال ذلك ما جاء فى صفحة 23 من الجزء الاول ، قال : « قوله (كذا نسبيئة كذا فى المطبوع ومثله فى اللسان) » وكقوله فى صفحة 145 من نفس الجزء :« (قوله وهو عند ابن عبس كذا فى الاصل المطبوع ومثله فى اللسان) .
وكقوله فى نسخ الخط وفى اللسان نسبة هذا الشعر الى مساور بن هند العبسى وفى الشواهد نسبته للعجاج فحرر) كما أن مصحح هذه الطبعة يعتمد على نسخ خطية . جاء فى صفحة 141 من الجزء الاول قوله : « سقط هذا البيت وما يتعلق به مقدما ومؤخرا من نسخ الخط التى بأيدينا . »

أما الطبعة الخامسة فقد أنجزتها مكتبة المثنى ببغداد التى قامت بتصوير نسخة بولاق فهى اذن مطابقة لها لا أقل ولا أكثر .

أما الطبعة السادسة فهى الطبعة التى يقوم الان الاستاذ عبد السلام محمد هارون بتحقيقها وشرحها . ظهر منها حتى الان أجزاء ثلاثة طبعت بدار القلم سنة 1385 (1966 م) مصدرة بمقدمة طويلة من 59 صفحة . ينتهى هذا الجزء بباب المبدل من المبدل منه وهو فى 446 صفحة وطبع الجزء الثانى بدار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1388 (1968 م) وهو فى 430 صفحة وينتهى عند باب « ما تلحقه الزيادة فى الاستفهام » : وطبع الجزء الثالث فى دار الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1973 م ، وهو فى 650 صفحة وينتهى بـ « باب تكسيرك ما كان من الصفات عدد حروفه أربعة أحرف » .

وبما أن هذه الطبعة العلمية الدقيقة لم تتم بعد فان فهارسها الفنية لم تظهر بعد لنستفيد منها .

1، 2، 1 أماكن وردت فيها لفظة « لهجة » مكـان « لغة » فى كتـاب سبـويـه

رأيته يتحدث عن لغة بنى ضبة ،(45) وعن لغات الانصار ، (46) وبنى تيس (47) وخثعم (48) ومذحج (49) وبنى قشير (50) وتيس بن ثعلبة (51) وأزد السراة (52) وبنى أسد (53) وبنى الحرماز (54) وبنى يشكر (55) وبنى سليم (56) وبنى سلـول (57) وبنى مازن (58) والحارثيين (59) وبنى دارم (60) وهذيل

45 — أنظر مثالا لذلك فى الكتاب ، الجزء الاول ، صفحة 95 السطر الثالث

46 — — — — — — — — — — — — 95 السطر السابع .

47 — — — — — — — — — — — — 104 السطر الاول .

48 — — — — — — — — — — — — 115 السطر الثانى والعشرون

49 — — — — — — — — — — — — 161 السطر الثالث وكذا 352 السطر السابع

50 — — — — — — — — — — — — 228 السطر السابع .

51 — — — — — — — — — — — — 246 السطر السابع .

52 — — — — — — — — — — — — 235 السطر السابع وكذا صفحة 341 السطر 9 و ص 346 السطر 1

53 — — — — — — — — — — — — 287 السطر ما قبل الاخير

54 — — — — — — — — — — — — 313 السطر الخامس عشر

55 — — — — — — — — — — — — 344 السطر الرابع .

56 — — — — — — — — — — — — 349 السطر الحادى عشر .

57 — — — — — — — — — — — — 358 السطر 7 وص 416 السطر 6و432 س5 وصفحة 438 س 8 و ص 442 س 7

58 — — — — — — — — — — — — 168 السطر الاول .

59 — — — — — — — — — — — — 419 السطر الثالث عشر .

60 — — — — — — — — — — — — 421 السطر السابع عشر .

(61) وبنى تغلب (62) وبنى تميم (63) وبنى كليب (64) وبنى باهية (65) وبنى كلاب (66) والسعديين (67) •

1• 2• 2 شهـادة أخرى من لسانيين معاصرين لسبويه

ويستعمل كلمة « لغة » فى زمانه بمعنى « لهجة » أبو زيد سعيد بن أوس الانصارى (68) ؛ فيقول فى نوادره ، وهو يشرح قول الراجز :

لقد رأيت عجبـا مذ أمسـا

عجائزا مثل الافـاعى خمسا

يأكلن ما فى رحلهن همسـا

لاترك الله لهـن ضرسـا

---

61 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 438 السطر العاشر .

62 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 449 السطر الاخير .
صفحة 65 السطر 4

63 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 485 س 3 والجزء الثانى ،

64 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ الجزء الثانى صفحة 59 السطر الرابع .

65 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 64 السطر السادس عشر.

66 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 174 السطر التاسع عشر.

67 ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ 202 السطر الخامس عشر.

68 ـ ولد سنة 119 هجرية موافق 737 ميلادية . كان اماما من أئمة الادب وعلم من أعلام اللسانيات ، من أهل البصرة . كان يرى رأى القدرية . كان ينقل سبويه عنه ويقول « سمعت الثقة » وكان حقيقة من ثقات اللغويين . ترك لنـا « النوادر » الذى أنقل عنه عنا و « الهمز » و «المطر » و «اللبـأ واللبـن » وكل هذه الكتب مطبوعة . أما الكتب التى لم تطبع فكثيرة ذكرها صاحب **وفيـات الاعيان** فى الجزء الاول صفحة 207 . توجد أخبار عنه فى « **جمهـرة الانساب** » صفحة 352 . وفى **تاريخ بغداد** فى الجزء التاسع منه ، صفحة 77 وفى **نزهة الالبـا** صفحة 173 وفى انباه الرواة الجزء الثانى . ابتداء من صفحة 30.

قوله : « أمسا » ذهب بها الى « لغــة » بنى تميــم •
يقولون : « ذهب أمس بما فيه » فلم يصرفه » (69) •

وقال فى مكان آخر : « علاها أراد عليها ولغة بنى الحارث
ابن كعب قلب اليــاء الســاكنــة إذا انفتــح ما قبلها ألفا •
يقولون : « أخذت الدرهمــان واشتريت ثوبــان ، والســلام
علاكم » ، وهذه الأبيات على لغاتهم • » (70) •

ويقصد بالأبيات بيتين رواهما أبو الغول للمفضل الضبى (71)

---

69 ــ **النوادر فى اللغة** ، صفحة 57 ، السطر الخامس •

70 ــ نفس المصدر ، صفحة 58 السطر الثامن •

71 ــ هو المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر بن سالم ، الضبى الكوفى اللغوى • اخذ القراءة عن عاصم • وروى عنه ابو زكريا يحى بن زياد الفراء وقرأ على ابن حمزة الكسائى وغيرهما • قدم المفضل بغداد فى ايام هارون الرشيد • يعتقد بعض المؤرخين انه ولد فى العشر الاول من القرن الثانى • وانه توفى سنة 145 •

اخبرنا الحافظ الذهبى فى كتابه « تاريخ الاسلام » (لا زال مخطوطا) وكذا فى مؤلفه « ميزان الاعتدال » الجزء الثالث ، صفحة 195 ووافقه فى هذه الروايه الحافظ ابو الخير محمد بن محمد الدمشقى (ابن الجزرى) فى كتابه « غايه النهاية فى طبقات القراء » ، الجزء الثانى صفحة 307 ان المفضل توفى سنه 168 هجريه وهذا مردود من اتفاق الجميع مطلقا على دخول صاحبنا بغداد أيام هارون الرشيد الذى لم يل الخلافة الا سنة 170 •

يعتقد كثير من المؤرخين انه توفى سنه 175 هجرية وهو أمر تؤيده نصوص كثيرة • « والمفضليات » وهو من كتب الاختيار من صنع المفضل الضبى ، وأعتقد أنه أول اختيار فى ميدان الشعر تلاه بعد ذلك كتاب « الأصمعيات » من اختيار أبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى • ثم « جمهرة أشعــار العرب » من صنع أبي زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى • ثم « مختارات شعراء العرب » من اختيار أبى السعادات ابن الشجرى » ثــم « ديــوان الحماسة » لابى تمام ، وآخر للبحترى وثالث لابى هلال العسكرى ورابع للاعلم الشنتمرى •

وأقدم طبعة للمفضليات هى التى قام بها المستشرق توربكة • أنجزت فى ليبزيج سنة 1885 ثم تلتها طبعة أخرى كاملة فى جزءين فى مصر سنة 1324 • (لم يطبع فى ليبزيج الا جزء واحد) ثم طبعة ثالثة مع شرح الانبارى تكفل بها المستشرق Sir Charles James Lyall وذيلها بتعليقات مع ترجمتها الى الانجليزية ثــم وضع فهارسهــا Ashley Bevan فى مجلــد ، ظهــرت هذه الطبعة سنة 1920 •

سمعهما الاول من بعض أهل اليمن (72) ، وهمـــا :

أى قلوص (73) راكب تراها

طاروا عليهن فشل علاها (74)

واشدد بمثنى حقب حقواها

ناجية ونـــاجيا اباها (75)

فليس هنا اذن « لغة » بالمعنى الذى نعرفه الآن حتـــى يجوز لنا أن نقول : ان « علاها » قول لامة ، و « عليهـــا » قول آخر لامة أخرى ؛ بل لا يعدو الامـــر أن يكون فى الحقيقة خلاف بين قبيلة وقبيلة داخل أمة واحدة تتكلم لغة واحـــدة . أما تبرير وجود هذا الخلاف ، فمن السهولة بمكان . ذلك أن قبيلة ما داخل الأمة العربية ـــ وهى هنا قبيلة بنى الحارث ـــ لا يساعفها النطق بالياء بعد الفتح ابدا ، لانها لم تألفها ، لا نطقا ، ولاسمعا ؛ ولن يفلح أحد فى حمل أفرادها على النطق بغير ما تعودت وبعكس ما ألفت ، ولو بذل ما بذل من الجهد ، ولو حاول من التمرين والتطبيق ، ولو أتى بما أتى من الشرح

كما نعرف طبعة أخرى للمفضليات باشراف الاستاذ حسن السندوبى الذى أخرجها للناس مع شرح موجز سنة 1345 . وآخر طبعة نعرفها للمفضليات هى التى حققها الاستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون والتى ظهرت منها حتى الان ثلاث طبعات (1964) .

72 ـــ قال أبو حاتم سألت عن هذه الابيات أبا عبيدة ، فقال : « انقض عليه هذا ، صنعه المفضـــل . »

73 ـــ مؤنـــثة .

74 ـــ أراد ناظم الابيات « عليها » وهذه هى لغة بنى الحراث بن كعب الذين يقلبون الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها ألفا ، يقولون : « أخذت الدرهمان واشتريت ثوبان والسلام عـــلاكم » .

75 ـــ يمكن أن يكون أراد بـــ « أبـــاهـــا » « أبوها »، فجاء به على لغة من قال هذا أباك فى وزن « هذا قفاك » وكذا كان القياس . وقال بعضهم ولكن يقال أب وأبان كقولك يد ويدان ودم ودمان فأراد الاثنين (النوادر فى اللغة) .

والتأويل له وان قبيلة أخرى لا يساعفها النطق بما نطقت به بنو الحارث لانها ترى فيه مدعاة ، تارة للالتباس بالمثنى المرفوع — وكثير من القبائل تفر من الالتباس واو خالفت القاعدة النحويه — وطورا معاكسة ما أسميه بـ « المجانسة الصوتية » التى ألفت التلفظ بها وتعودت سماعها ، مجانسة لا تريد بها بديلا ، سيما وقد بنت عليها قواعد صوتية لا تحصى ، رسخت بين عشائرها ، ونبتت بين أفرادها ، ولاسبيل الى اقتلاعها بحال من الاحوال .

1 • 2 • 3 نص قديم يوضح الفكرة السابقة

أما الدليل على أن أفراد قبيلة ما لا يستطيعون أن يتحولوا عن نطقهم الى نطق آخر ، فهو ما سجله لنا أبو الفتح عثمان ابن جنى (75) ، الذى قال : « وأخبرنا أبواسحاق ابراهيم بن أحمد القرميسينى(76) عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى (77)

75 — أنظر ترجمته فى نزهة الالباء ص 408 من الطبعة الاولى — الكامل لابن الاثير فى حوادث سنة 337 .

76 — ضبطها صاحب القاموس بكسر القاف وضبطها صاحب معجم البلدان بفتحها . أورده ابن الجزرى فى كتابه « طبقات القراء » فى الصفحة السابعة من الجزء الاول فقال : « ابراهيم ابن أحمد بن الحسن بن مهران أبو اسحاق القرماسينى » ويقول ابن جنى عن هذا القارىء : « فأما ما رأيناه فى ذلك فكتاب أبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى (توفى سنة 255 هجرية) أخبرنا به أبو ابراهيم بن أحمد القرميسينى » لا أعرف سنة وفاته ، وهو قطعا من معاصرى ابن جنى فى القرن الرابع .

77 — اختلف أصحاب التراجم فى اسمه ، فمن قائل أنه « محمد بن مقرون » كما فى أحد النسخ الخطية لكتاب **المحتسب** وسماه ابن الجزرى فى « غاية **النهاية فى طبقات القراء** » الجزء الثانى ، صفحة 273 ، بـ « محمد بن هارون الطبرى » والرويانى بضم الراء وسكون الواو وفتح الياء آخر الحروف وبعد الالف نون ، هذه نسبة الى رويان ، وهى مدينة بنواحى طبرستان خرج منها جماعة من أهل العلم . (أنظر اللباب فى تهذيب الانساب الجزء الثانى ، صفحة 44 ، السطر التاسع .)

عن أبى حاتم سهل بن محمد السجستانى (78)، فى كتابه الكبير فى القراءات قال : « قرأ على أعرابى بالحرم : « طيبى لهم وحسن مآب » فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فأعدت فقلت : طوبى ، فقال طيبى (81)، فلما طال على قلت : طوطو ، قال :

78 — توفى سنة 255 هجرية كان امام البصرة فى اللسانيات والعروض والقراءة . يعتقد ابن الجزرى أنه أول من صنف فى القراءات . لزمه المبرد ، عالم اللسانيات المشهور ، زمنا طويلا أخذ عنه ، له ، من المصنفات التى طبعت « المعمرين » و « النخلة » و « الاضداد » الذى نشره فى بيروت سنة 1912 و 1913 المستشرق August Haffner مع كتب أخرى فى الاضداد لابن السكيت والصغانى والاصمعى مع حواش للاب أنطون صالحانى اليسوعى .
Drei arabische Quellenwerke über die Addàd, mit Beiträgen von P.A. Salhani S. J. und einem spätarabischen Anhange.
والتى لم تنشر ، فى علمى على الاقل ، كـ « السوحوش » و « الحشرات » و « الشوق الى الوطن » و « العشب والبقل » و « الفرق بين الادميين وكل ذى روح » و « المختصر » وهو فى النحو على مذهب سبويه .

79 — الاية 29 السورة الثالثة عشرة ، الرعد . والاية بأكملها هى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

80 — هذه قراءة الجمهور بلا خلاف بينهم . لكنهم اختلفوا فى تأويل هذا النطق ، فمنهم من قال انها جمع « طيبة » قاسوه بـ « كوسى » فى « كيسة » و « صوفى » فى « صيفة » . على رأس القائلين بهذا القول أبو الحسن الهنائى (بضم الهاء وفتح النون وبعد الالف ياء مثناه من تحتها — هذه النسبة الى هناءة بن مالك فهد بن غنم بن دوس ، بطن من لاوس ينسب اليه نفر) (أنظر اللبلب فى تهذيب الانساب ، الجزء الثالث ، صفحة 393 السطر الخامس) .
وان هذا التأويل الذى صدر عن هذا الفريق لغريب جدا ، لان فعلى ليست من الفاظ الجموع الا أن كانوا يعنون اسم الجمع . ومنهم من قال هى مفرد مصدر ، كبشرى ورجعى وعقبى . لكنهم حتى فى هذه الحالة المتبوأة التى نتبناها لانها معقولة يختلفون فيما بينهم فى مدلولها . فمن قائل « غبطة لهم » يوجد على رأس هذا الفريق الذى قال بهذا التفسير الضحاك . ومنهم من رأى أنها تعنى « نعمى لهم » تقول بهذا جماعة على رأسها عكرمة . ومنهم من رأى أنها تدل على « فرح وقرة عين » قال بهذا جماعة على رأسهم ابن عباس . ورأت جماعة أخرى يترأسها قتادة أن « طوبى لهم » تعنى « حسنى لهم » وهى كما ترى ، أقوال متقاربة . ويظهر أن هذه اللفظة من أصل حبشى (أنظر البحر المحيط ، الجزء الخامس ، صفحة 389 ، السطر 27 .)

81 — قرأها هكذا أى « طيبى » بكرة الاعرابى لتسلم الياء من القلب وأن كان وزنها « فعلى » (أنظر أبا حيان الغرناطى (توفى سنة 754) فى تفسيره البحر المحيط ، الجزء الخامس ، صفحة 390 السطر التاسع) .

(حلى حلى (82)) • أفلا ترى الى هذا الأعرابى ، وأنت تعتقده جافيا كزا ، لادمثا ولا طيعا ، كيف نبا طبعه عن ثقل الواو الى الياء فلم يؤثر فيه التلقين ، ولاثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين ، وما ظنك به اذا خلى مع سومه (83) وتساند الى سليقته (84) ونجره •

وسألت يوما أبا عبد الله بن العساف العقيلى الجوثى ، التميمى — تميم (85) جوثة — فقلت له : كيف تقول : ضربت أخاك ؟ فقال أقول ضربت أخاك • فأدرته (86) على الرفع ، فأبى ، وقال : لا أقول : أخوك أبدا • قلت : فكيف تقول : ضربنى أخوك ، فرفع • فقلت : ألست زعمت انك لا تقول : أخوك أبدا ؟ فقال : أيش هذا ! اختلفت جهتا الكلام • فهل هذا الا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، واعطائهم اياه فى كل موضع حقه ، وحصته من الاعراب ، عن ميزة وعلى بصيرة ، وانه ليس استرسالا ولا ترجيما • ولو كان كما توهمه هذا لكثر اختلافه ، وانتشرت جهاته ، ولم تنقد مقاييسه • وهذا

---

82 — حاشية محقق « الخصائص » لابى الفتح عثمان بن جنى الاستاذ محمد على النجار ، جاء فيها : « كتب هكذا بفصل الكلمتين ، فانه لا يريد تكوين كلمة من هذين المقطعين ، وفى هامش أ. « طيطى » (الحاشية رقم 1 فى صفحة 86 من الخصائص ، الجزء الاول) والنسخة الخطية التى أشار اليها المحقق فى حاشيته بـ أ. هى نسخة خزانة المدرسة الحنفية بجامع صرغتمش بجوار جامع ابن طولون وتحمل رقم 110 نحو (نظر مقدمة تحقيق الخصائص).

83 — أى تركه يفعل كيف يشاء . وأصل ذلك فى الماشية وهى ترسل فى المرعى حيث شاءت . فيقال : خلاها وسومها . (الحاشية رقم 2 لمحقق الخصائص)

84 — يقال فلان يقرأ بالسليقة اذا كان يقرأ بطبعه لا عن تعلم . والنجر : الاصل والطبيعة (حاشية الخصائص) .

85 — بضم الجيم وسكون الواو : اسم حى أو موضع نسبت اليه تميم . وتميم تقرأ بالنصب أى أعنى ، وسمع جرها على حذف المضاف وابقاء جر المضاف اليه أى صاحب تميم ، وللكوفيين فى الجر توجيه آخر ، وأنظر الصبان فى أول النسب . (حاشية الخصائص) .

86 — يقال : ادرت فلانا على الامر اذا حاولت الزامه اياه . (حاشية محقق الخصائص)

موضع نفرد له بابا باذن الله تعالى فيما بعد . (87) »

1. 2. 4. استمرار استعمالهم « لغة » مكان « لهجة » زمنا طويـــلا .

ونجد لهذه اللفظة نفس الاستعمال بعد قـــرن من الزمـــن تقريبا ، نجدها بعد سيبويه والانصاري عند اللغوى أبى يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت (88) قال فى كتابـــه « اصلاح المنطق (89) »: « ويقال الصرع (90) لغـــة قيـــس

---

87 ــ **الخصائص** ، الجزء الاول ، السطر ما قبل الاخير فى الصفحة 75 .

88 ــ ازداد ابن السكيت سنة 186 هجرية (802 ميلادية) . يقول ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » صفحة 408 من الجزء الثانى من طبعة بولاق عن لقبه « والسكيت لقب ابيه عرف بذلك لانه كثير السكوت ، طويل الصمت » ينسب الى دورق وهى بلدة من أعمال خوزستان من كور الاهواز . كان الابن اماما فى اللغة والادب تعلم ببغداد واتصل بالمتوكل العباسي . ترك لنا من المصنفات « اصلاح المنطق » و « الالفاظ » و « الاضـــداد » و « القلب والابـــدال » و « شرح ديوان عروة بن الورد » و « شرح ديوان قيس بن الخطيم » وكل هذه الكتب طبعت. أما التى لم أطلع عليها مطبوعة فهى «الاجناس» و «سرقات الشعراء » و « الحشرات » و « الامثـــال » و « شرح شعر الاخطـــل » و « تفسير لشعر أبى نواس » و « شرح الاعشى » و « شرح شعر زهير » و « غريب القران » و « البنات والشجر » و « النوادر » و « الوحوش » و « معانى الشعـــر » و « شرح شعر ابن أبى ربيعة » .

89 ــ يعد كتاب (اصلاح المنطق من كتب لحن العامة ، خلافا لما يعتقده البعض وعلى رأسهم جرجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الثانى ، صفحة 18) الذى ظنه فى « المنطق »وفى علوم من العربية أخرى . ولقد اراد ابن السكيت أن يعالج به داء كان قد استشرى فى لغة العرب و المستعربة . الف قبله فى نفس الموضوع كل من الكسائى (توفى سنة 189 هجرية موافق 805 ميلادية) كتابا سماه « لحن العامة » وأبى الهيدام (من علماء القرن الثالث الهجرى)، والفراء (التوفى سنة 207 هجرية موافق 822 ميلادية) كتابا سماه « البهاء فيما تلحن فيه العامة » . وأبى عبيدة (المتوفى سنة 216 هجرية موافق 831 ميلادية) كتابا فى نفس الموضوع ولقد اهتم بكتاب « اصلاح المنطق » علمـــاء اللغة اهتماما كبيرا فتصدوا له يشرحونه تارة ويختصرونه أخرى . قتله المتوكل سنة 244 هجرية موافق 858 ميلادية .

90 ــ بكســـر الصـــاد .

والصرع (91) لغة تميم ، وكلاهما مصدر صرعت (92)» وقال في نفس الكتاب : « رفقة (93) ورفقة (94) لغة تيس وتميم (95)»

فاذا أرادوا تقسيم هذه اللهجات نعتوها ، فكانت عندهم « اللغة الفصيحة » و « الفصحى » و « العليا » و « العاليا » و « الرديئة » و « القبيحة » وغير ذلك من الصفات ، رأينا بعضها فيما سبق من الشواهد وسنرى الباقي فيما يستقبل .

كما نجد للفظة « لغة » بعد قرنين وربع نفس المدلول تماما . ذلك أن أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد (96) ، يقول وهو يحاول حل لغز أصل أسماء ولد المطلب بن عبد مناف : « واشتقاق « مسطح من شيئين ، اما من عمود الخباء الذي يلي السطاح ، والجمع مساطح ، أو هو من السطح ، وهو مربد التمر بلغة أهل نجد . (97) »

وقال في نفس الباب : « وركانة ، فعالة من قولهم ركنت الى الشيء أركن ركانا ، وهي اللغة العالية » .

91 — بالفتح .

92 — « اصلاح المنطق » صفحة 31 ، السطر الثاني .

93 — بكسر الراء .

94 — بالضم .

95 — اصلاح المنطق ، صفحة 115 .

96 — هو محمد بن الحسن بن دريد الازدي ، أبو بكر ، ازداد سنة 223 هجرية موافق 838 ميلادية . قال عنه أبو الطيب اللغوي في مراتب اللغويين صفحة 84 : « هو الذي انتهى اليه علم لغة البصريين ، وكان أحفظ الناس واوسعهم علما وأقدرهم على شعر ، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الاحمر وابن دريد . وتصدر ابن دريد في العلم ستين سنة . » خلف لنا مؤلفات مهمة منها : « المقصورة الدريدية » و « جمهرة اللغة » و « الاشتقاق » و « المقصور والممدود » و « المجتنى » و « صفة السرج واللجام » و « الملاحن » و « السحاب والغيث » وكلها مطبوعة متداولة . كما ترك لنا مصنفات ما تزال مخطوطة . مثل « شرح المقصور والممدود » و « ذخائر الحكمة » وغيرهما .

97 — الاشتقاق ، صفحة 86 ، السطر 11 .

وقال وهو بصدد الحديث عن قبائل يربــوع بن حفظلة : « وجمع معذرة ، معاذير • وفسر قوم قوله عز وجل : « ولو ألقى معاذيره (98)، وهى لغة أزدية بـــ « الستور » (99) ، الوحـــد معذار • (100) » •

وقال وهو يدرس أسماء الاعلام فى قبائل سليط : « وقال بعض الرجــاز (101) :

يا قاتل اللــه بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات
غير اعفاء ولا أكيات (102)

أراد : الناس ، والاكياس • وهى لغة لهم • (103) » •

وهكذا صار بن دريد يستعمل لفظة « لغـــة » فى مكــان « لهجـــة » كما فعل الآخرون قبله •

1• 2• 5• حـــد اللغة فى هذه العصور التى تهمنا •

لم نهتم حتى الآن بتعريف لكلمة « لغـــة » عند الاقدمين علما منا أنهم لم ينشغلوا بتحديدها كانشغال علماء اللسانيات فى العصر الحديث • ومع ذلك يحسن أن نقدم بعض تعريفاتهم

---

98 ــ الاية 15 من السورة الخامسة والسبعين ، القيامة .

99 ــ فى المطبوع المتداول بين الناس : « وهى لغة ازدية ، وهى الستور » : كلام غير مستقيـم .

100 ــ **الاشتقاق** ، صفحة 222 ، السطر الرابع .

101 ــ هو علباء بن أرقم كما فى **نوادر** ابن زيد ، صفحة 104 وفى **اللسان** مـــادة (نوت) ، وانظر كذلك الحيوان الجزء الاول ، صفحة 187 .

102 ــ **الاشتقاق** ، صفحة 227 ، السطر 12 .

103 ــ أورده كذلك ابو زيد سعيد بن أوس الانصارى ، فى **النوادر فى اللغـــة** ، صفحة 104 ، الطبعة الثانية لبنـــان 1387

لها لتكون فكرة ، ولو تقريبية ، فى الموضوع • وان أحسن تعريف ، فى نظرى ، للغة ، عند الاقدمين هو الذى قدمه لنا العالم اللغوى الكبير ابن جنى ، قال : « أما حدها فانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم • هذا حدها • وأما اختلافها فلما سنذكره فى باب القول عليها : أمواضعة هى أم الهام • وأما تصريفها ومعرفة حروفها فانها فعلة من لغوت • أى تكلمت، وأصلها لغوة ككرة وقلة وثبة ••• (104) »•

نلاحظ من هذا أن ابن جنى لا يستطع ، أو على الاصح لا يريد أن يقدم تعريفا للغة دون أن يتحدث عن أمور متشعبة ستبقى حتما ، جوانب منها غامضة على كل حال •

هذه الصعوبة التى جعلت ابن جنى يحجم عن التفكير فى تعريف شامل للغة هى التى أحس بها فى عصرنا الحاضر العالم اللغوى الفرنسى André Martinet (105) الذى لم يحاول أن يقدم تعريفا للغة (106) دون ادخال الوحدات ذات الدلالة (107) فيه •

---

104 — **الخصائص** ، الجزء الاول ، صفحة 33 ، فى أولها .

105 — ازداد سنة 1908 وهو حاليا مدير الدروس بمدرسة الدروس العليا واستاذ بالسربون بباريس .

106 — أنظر Clefs pour la semantique للعالم اللغوى Georges Mounin صفحة 16 .

107 — افضل أن أترجم Les unités significatives بـ « الوحدات ذات الدلالة » أو الوحدات الدالة . أنظر الحاشية رقم 43 .

وعرفها ابن الحاجب (108) : قال : حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى » وقال الاسنوى (109) فى شرح منهاج الاصول : «اللغات عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعانى (110) » .

ودقق النظر أكثر فى اللغة الفقيه الشافعى الكيا الهراسى (111) فعرفها بتعريف علمى دقيق قريب جدا مما يذهب اليه الآن علماء اللسانيات فى عصرنا الحاضر ، الا أن تعريفه ، كما كان منتظرا ، جاء منطبقا على اللغة التى يتقنها ، وهى اللغة العربية ، قال فى تعليقه فى أصول الفقه :

« وهذا الكلام انما هو حرف وصوت ، فان تركه سدى غفلا امتد و طال ، وان قطعه تقطع ، فقطعوه وجزءوه على

---

108 ــ هو عثمان بن عمر بن بكر بن يونس ، أبو عمرو جمال الدين ابن الحجاب ، فقيه مالكى من علماء العربية ولد فى أسنا (من صعيد مصر) سنة 570 هجرية موافق 1174 ميلادية ، نشأ فى القاهرة وسكن دمشق من كتبه المطبوعة « الكافية » و « الشافية » الاولى فى النحو والثانية فى الصرف و « المقصد الجليل » فى العروض و « منتهى السول والامل فى علمى الاصول والجدل » و « مختصره » وهما فى أصول الفقه . ومن كتبه التى لا زالت مخطوطة « مختصر الفقه » و « الامالى النحوية » و « الايضاح » يشرح به المفصل للزمخشرى و « جامع الامهات » فى الفقه . مات فى الاسكندرية 646 هجرية موافق 1249 ميلادية .

109 ــ هو عبد الرحيم بن الحسن بن على الاسنوى ، نسبة الى اسنا (أنظر معجم البلدان) التى ولد بها سنة 704 هجرية موافق 1305 ميلادية ، فقيه شافعى وعالم لغوى كبير لا أعرف أنه من الكتب المطبوعة الا اثنين هما : « نهاية السول شرح منهاج الاصول . » (أنظر الحاشية 108) و « التمهيد » فى الفقه ، فى تخريج الفروع على الاصول . ومن مصنفاته التى لا زالت مخطوطة. « نهاية الراغب » وهو فى العروض . و « الكوكب الدرى » فى استخراج المسائل الشرعية من القواعد النحوية ، و « جواهر البحرين » و « الهداية الى أوهام الكفاية ». توفى سنة 772 هجرية 1370 ملادية .

110 ــ انظر المزهر فى علوم اللغة وانواعها للامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطى، الجزء الاول ، صفحة 8 من بدايتها .

111 ــ أبو الحسن على بن محمد بن على الملقب بعماد الدين المعروف بالكيا الهراسى ، فقيه شافعى ، مفسر ، ولد فى طبرستان وسكن بغداد ، توفى سنة 504 هجرية (من المزهر صفحة 36 ، حاشية رقم 1) .

حركات أعضاء الانسان التى يخرج منها الصوت وهو من أقصى الرئة الى منتهى الفم ، فوجدوه تسعة وعشرين حرفا لا تزيد على ذلك ، ثم تسموه على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لا تقع بهذه الحروف التى هى تسعة وعشرون حرفا ، ولا يحصل له المقصود بافرادها ، مركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا هذا هو الاصل فى التركيب ، ومازاد على ذلك يستثقل ، فلم يضعوا كلمة أصلية زائدة على خمسة أحرف ، الا بطريق الالحاق والزيادة لحاجة . وكان الاصل أن يكون بازاء كل معنى عبارة تدل عليه ، غير أنه لا يمكن ذلك ، لان هذه الكلمات متناهية ، وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادرها متناهية ؟ فدعت الحاجة الى وضع الاسماء المشتركة ، نجعلوا عبارة واحدة امسميات عدة .(112)»

112 — من المزهر للسيوطى ، الجزء الاول . صفحة 36 . السطر الثانى عشر .

الفصل الثانى

2 فى العصور الحديثة

1 ٠ 2 ٠ تعـاريـف غيرنـا

لقد عرف علماء اللغة المعاصرون من غير العرب « اللغة » بتعاريف كثيرة • سأقدم بعضها حسب ترتيب تحكمي لا أراعي في وضعه الا الفائدة التي يقدمها لفكرة نشأة اللغة التي جاءتها من نمط هـذا المؤلـف • (113)

1 ٠ 2 ٠ 1 ٠ التعـريف الاول

هـو التعريف الذي تركه انـا العـالم اللغـوي الالمـاني Wilhelm von Humboldt (114)• أعطيت لتعريفه الاسبقية على كل التعاريف الاخرى :

أولا لان هذا العالم اللغوي هو من مخضرمي القرنين الثامن والتاسع • لهذا استطاع أن يجمع ، لكن بذكاء مفرط ، بيـن النزعات المختلفة موفقا بينها أحسن توقيف •

---

113 — لن أخصص خبرا مستقلا للحديث عن قضية « نشأة اللغة » لامرين ، لانني ، من جهة سأبحث فيها خلال عرضي للفقرات الكثيرة القادمة ، ولانني من جهة أخرى، اعتقد انه لم يبق التطرق لها ، من أجل البحث فيها وحدها ، أمرا ذا بال.

114 — ازداد سنة 1967 • كان ذا ذكاء خـارق وتفكير عميق • أسس سنة 1810 جامعة برلين ، أصبح وزيرا سنة 1818 اتقن لغـات كثيرة وألف دراسـات مقارنة لاكثر اللغات التي كان يتقنها • نشرت دراساته على النـاس في نشرة ظهر اول جزء منها سنة 1903 وآخر جزء منهـا سنة 1936 تحـت عنـوان Wilhelm von Humbolds Werke وهي الان في 17 مجلـدا • مـات سنـة 1835 •

ثانيـــا لاننا نلاحظ فى أفكاره حول اللغة ما يساعدنا على فهم تنشية « نشأة اللغة » ، ذلك أن أفكاره تعبر ، أصدق تعبير ، عن مذاهب الفلاسفة الذين اهتموا بماهية الكلام ، واللغــة بالنسبة للفكر والثقافة ، وأصل الانسان ، ومآله بصفة عامة ، مثل كونديالك وتلميذه Court de Gébelir (115)، كمـــا تعبر فى نفس الوقت، عن مذاهب الكتاب مثل الكاتبين الالمانيين J. G. Hamann (116) و J. G. von Herder (117) •

ثالثـــا لانه كان المشجع الاكبر للدراسات المقارنة التاريخية • ولعل الذى دفعه الى هذا عاطفته الرومانسية التى كانت قــد عمت، أكثر بلدان أوروبة فى ذلك العصر •

واننا لنعلم أن هذه العاطفة الرومانسية لتترجم عند أمثال هؤلاء العلماء « بحنين عميق موجه نحو الماضى وتطلع شديــد الى مجاهيله وغوامضه ، وبصفة خاصة مسائل أصل الانسان ، وأصل لغته وسر وجود الفكر مع اللغة عند الآدميين •(118) »

رابعـــا لان هومبولت من العلماء الثلاثة فى ذلك العصر الذين لم يعتمدوا بشكل كلى ، ليحللوا المشاكل اللغوية ، على النظر

---

115 ــ ازداد سنة 1725 وتوفى سنــــة 1784 •

116 ــ ازداد سنة 1730 ومات سنــــة 1788 •

117 ــ كاتب وفيلسوف المانى عاش من
سنة 1744 الى 1803 •
صالح فى مقاله « مدخل الى علم اللســـان الحــديث » المنشــور فى مجلــة

118 ــ استعنت كثيرا هنا فى بعض الفقرات الاتية بما كتبه الاستاذ عبد الرحمن الحــاج
« اللســـانيـــات » وهى مجلة تهتم بعلم اللسان البشرى تصدرهـــا جـــامعة
سنة 1972 صفحـــة 23 •
الجزائر ، أخذت الفقرة أعلاه من المجلد الثانى للمجلة المذكورة ، الصادرة

والتأمل ، بل آمنوا بضرورة البحث الاستقرائي ، وذلك بتتبع النصوص القديمة والحديثة وببحثهم عن الغايات، التي كتبت من أجلها هذه النصوص ثم تحليلها تحليلا علميا دقيقا .

وتعريف هذا العالم للغة هو :

« **ان اللغة جهاز عضوى ويجب أن يعالج على هذا الاساس**
ولذا فاللغة ، اعتمادا على هذا التعريف ، نظام عضوى وبنية ((Sprachform)) وصورة باطنية (Innere Sprachform) مخالفة للصورة الظاهرية للكلام . واللغة عنده أيضا شرط لازم لوجود الفكر ، يقول : « ان عملية الكلام تنحصر كلها في منحها الفكر مادة يعتمد عليها ، بازالتها الابهام بفضل ما تتركه الاصوات المتقطعة من اثر ثابت ، باجبارها الذهن على أن تنتظم جميع معانيها بانتظام الالفاظ المتعاقبة (119) . »

وفرق كبير بين ما كان يراه أرسطو قديما من أن « **اللغة مرآة صادقة للعقل** ». » وما رآه العالم اللغوى هومبولت.

لقد رأى هذا الاخير أن اللغة « **هي العضو الذي يصوغ الفكر** ». وهو رأي استحوذ على تفكير علماء العصر الحاضر، فاستمدوا منه المبدأ الذي نسميه « **اشتراط اللغة** »

Principe du determinisme linguistique وكان ، بعد أن أعلن عن هذا الرأي ، وهو أن اللغة عضو يصوغ الفكر ، أمام مشكل عليه أن يجد له حلا . فالمعاني لا حصر لها ولا عد ، ولا حدود ولا

---

119 — أنظر Lettre à M Abel Rémusat الموجودة في كتاب «De l'origine des formes grammaticales et de leur influence sur le développement des idées» p. 86.

نهاية ، فكيف تستطيع لغة ليس لها الا وسائل محصورة العدد التعبير عنها ، كان حله لهذا المشكل بسيطا للغاية ، لقد اكتفى بأن بين أن النشاط الذى يحدث الفكر هو نفسه الذى يحدث اللغــة .

ومن هنا كان يقول : « ان الكلام فى الحقيقة شىء يمــر على الدوام ، بل وفى كل لحظة ، فالكلام ليس فى ذاته ما يحدثه الحدث (أثر الفعل) بل حدث النشاط (الفعل نفسه) » .
لنــا على هذا مــلاحظتــان .

1. 2. 3. المــلاحظــة الاولى

ان هومبولت يتفق ، كما نرى مع هذه المناقشات اللغوية التى كانت تدور قديما بين المعتزلة وغيرهــم من المتكلمين . سيما وقد رأيناه يستعمل ، لتوضيح هذه الفكرة اللفظة الالمانية Erzeugue التى يمكن أن نترجمها الى لغتنا بكلمة « توليد » . وهى المفردة ذاتها التى استعملها المعتزلة و غيرهم من المتكلمين حين كانوا يتحدثون عن ماهية الكلام الذى حدده الجرجــانى هكذا : « **هو أن يحصل الفعل عن فاعله بتوسط فعل آخــر كحركة المفتاح بحركة اليــد .** »

الا ان هومبولت يريد منــا أن نبحث عن الفعــل الذهنى الفيزيولوجى الذى يحصل بواسطته الكلام . ذلك أنه ينظر الى اللغة نظرة حركية لا نظرة سكونية ، وبهذا فقط ندرك ما يرمى اليه حين يوضح أن الكلام فى حد ذاتــه ليس بالشىء المحدث بالحدث ، بل حدثا ، أى فعلا ونشاطا .

1 • 2 • 4 • الملاحظـة الثـانية

من الجائز أن يعتقد الناس أن هومبولت كان الرائد الاول حين وجدا حلا للمشكل الذى يسميه « **ألفاظ اللغة محدودة بالنسبة** المعانى التى لا حصر لها • » (انظر 1 • 2 • 1 •) سيما وأن « تيارا كاملا من الابحاث اللغوية التى نشرت فى مطالع القرن العشرين من Croce الـى Cassirer ومن Weisgerber الى Whorf قد امكن تحديده بارجاعه الى Humboldt • وسمى هذا التيار « بعلم اللغة الهومبولدى الجديد (120) » •

الا أن الواقع عكس ذلك، فالعرب سبقوا الى هذه الفكـرة وحللوها من جميع جوانبها وأعطوا فيها نتائج التى لا تتباين فى شىء عما وصل اليه علم اللغة الحديث • ويكفى أن اورد ما صرح به الامام فخر الدين الرازى (121) واتباعه فى الموضـوع لنقتنـع بذلك • قـال :

« لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ لأن المعانى التى يمكن

---

120 انظر « **تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين** تأليف Georges Mounin ترجمـة الدكتـور بدر الدين القـاسم ، صفحة 196 •

121 — هو محمد بن عمر بن الحسنى التيمى البكرى الامام فخر الدين الرازى • ازداد فى الرى سنة 544 هجرية وقيل 543 (موافق 1150 ميلادية) من مصنفاته التى طبعت « شرح أسمـاء اللـه الحسنـى » و « شـرح قسم الالاهيات مـن الاشـارات لابن سينـا » وتهذيب المسمى بـ « لباب الاشـارات » و « الاربعون فى أصول الدين » و « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » وهذا فى البلاغة • و « أساس التقديس » وهى فى التوحيد و « المباحث المشرقية • » و « المسائل الخمسون فى اصول الكلام » و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين • » و « ومعالم أصول الدين » و « لوامع البينات فى شرح اسماء الله تعالى و الصفات » و « مفاتيح الغيب » وهو فى التفسير فى ثمانى مجلدات • وله مصنفات أخرى ما زالت مخطوطة • توفى حسب ما جاء فى « طبقات الشافعية الكبرى لتقى الدين السبكى الجزء الخامس ، صفحة 39 السطر الثانى يوم الاثنين • وكان يوم عيد الفطر سنة 606 هجرية موافق 1210 ميلادية وكانت وفاته بهـراة •

أن تعقل لا تتناهى ، والالفاظ متناهية ، لانهـا مركبة مـن الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهى متناه ، والمتناهى لا يضبط ما لا يتناهى ، والا لزم تناهى المدلولات .
قالوا : فالمعانى منها ما تكثر الحاجة اليه ، فلا يخلو عن الالفاظ، لان الداعى الى وضع الالفاظ لها حاصل ، والمانع زائل ، فيجب الوضع ، والتى تندر الحاجة اليه يجوز أن يكون ألفاظـا و الا يكـون (122). »

فهذا ، كما نرى رأى سديد للغاية لا يقوم حجة فقط على أن العرب سبقوا هومبولت لهذه الافكار ، وانما يأتى بأشياء أخرى لا تقل أهمية عن الاولى سأتعرض لها فى مظنتها المناسبة .

1 . 2 . 3 . التعريف الثانى

من المعلوم أن سنة 1816(123) كانت بحق سنة ميلاد علوم اللغة بالنسبة لاجيال عديدة من اللسانيين بأوروبة . ذلك ان العالم الالمانى الشهير Franz Bopp (124) أصدر ، فى هـذه السنة ، كتابا حلل فيه ، ولاول مرة فى التاريخ ، عدة لغات من

122 — أنظر المزهر ، الجزء الاول ، صفحة 41 ، السطر الثالث .

123 — أى قبيل وفاة هومبولت بتسعة عشرة عاما . وقبل قرن تماما من طبع كتـاب العالم اللغوى الكبيـر Ferdinand de saussure.

124 — ازداد فى مدينة ماينز سنة 1791 . تعلم الفلسفة على يد Windischmann والعربية فى باريس من سنة 1812 الى سنة 1816 على يد المستشرق الفرسى Sylvestre de Sacy كما تعلم الفارسيه والعبرية على يد المستشرق Chezy . كان لبوب الفضل فى ارساء المعالم لدراسة اللغة الكلتية التى خصها بكتاب عنوانه « اللغات الكلتية فى ضوء الاسلوب المقارن » الذى ظهر لاول مـرة سنـة 1838 . توفى بـوب سنـة 1867 .

الوجهة التاريخية، وعلى أساس المقارنة لغرض علمي بحت (125)، بعيد عن تلك التأملات الفلسفية العقيمة والتحليلات الارسطوطاليسية السطحية التي يرجع الفضل في جمعها والاحتفاظ بها للعالم اللغوي Révész (126) .

125 — أريد أن أثير الانتباه الى قولي : (الوجهة التاريخية على أساس المقارنة العلمية » الذي أريد أن أسجل به أمرا ذا بال في البحث اللغوي . ذلك أنه يوجد في هذا المجال ميدانين : (أنظر أيضا الحاشية رقم 128)

1 — الميدان الذي يمكن أن نسميه ، كما أراد Friedrich Diez (أنظر كتابه قواعد اللغة الرومانية) بـ « القواعد المقارنة » وهي التي يطلق عليها الانجليزيون « فقه اللغة المقارن » والذي وصل الى أوجه بفضل جهود العالم اللغوي الامريكي Whitney سنة 1875 (أنظر 1، 2، 13) وبفضل حنكة مدرسة النحويين الشباب الالمان (أنظر 10،2،1) سنة بعد ذلك أي في 1876 . وهذه الصيغة « فقه اللغة المقارن هي التي سيأخذ بها De Saussure في محاضراته .

2 — الميدان الذي يعرف بـ « علم اللغة التاريخي » الذي جاء به Jacob grimm في كتابه « **القواعد الالمانية** » حيث قدم حديثا صريحا من معالجة تاريخية لا مقارنة للغات الجرمانية . لذا عد المؤسس الحقيقي لـ « علم اللغة التاريخي ».

الا أننا ان أمعنا النظر في القسمين ، لاحظنا أنهما يكادان يكونان مترادفين وبأصح تعبير متكاملين الامر الذي حذا بـ Meillet الى القول : « بأنه لا يوجد علم يسمى بالقواعد المقارنة .

وان كنا نعلم هذه القواعد في فرنسا منذ خمسين عاما ، اذ لا توجد الا طريقة مقارنة ، وان ما ندعوه خطأ بالقواعد المقارنة ليس الا شكلا من اشكال التاريخ . فاذا أردنا بحث القواعد المقارنة لاحدى اللغات ، درسنا تاريخ هذه اللغة على هدى الطريقة المقارنة والحق أن القواعد النحوية التاريخية تستفيد من استخدام هذه الطريقة حتى أنها لاتستطيع الاستغناء عنها»(تاريخ علم اللغة لجورج مونن ترجمة بدر الدين القاسم ، صفحة 185 من أولها) .

وهذا بالذات هو الذي يدخل في صلب الموضوع : « الوجهة التاريخية على أساس المقارنة العلمية » .

126 — يعد Révész العالم اللغوي الوحيد الذي بحث ، في كتاب مستقل ، مسألة نشأة اللغة . ظهر كتابه لاول مرة في Borna بالمانية سنة 1946 . ثم ترجم الى اللغة الفرنسية تحت عنوان : origine et préhistoire du langage وطبعته دار Payot في 234 صفحة سنة 1950 . تحدث عن هذا الكتاب العالم اللغوي Vendryes في مجلة جمعية اللسانيات في جزئها 44 من صفحة 5 الى 7 الذي صدر سنة 1948 . كما تحدث عنه اللغوي Taylor سنة 1958 في Word يساعدنا كتاب Révész على معرفة الفرضيات القديمة التي تعاقبت منذ أن بدأ الانسان يبحث في الموضوع الى زمن الكاتب .

ويسمى كتاب Franz Bopp هذا الذى قلنا عنه انه ولد علوم اللغة فى جيل هومبولت. أى فى جيل تلك المدرسة الرومانسية التى قامت تحارب الادباء العقلانيين وتميل ميلا شديدا نحو البحث فى حضارات غريبة عن بلادها بـ « فى نظام تصريف اللغة السنسكريتية ومقارنته بالانظمة الصرفية المعروفة فى اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية • (127) »

ففى هذا الكتاب بالذات نجد التعريف الثانى للغة ، وان كان لا يختلف كثير الاختلاف عن تعريف سابقه ، ماداما ، معا ، يسيران فى تيار واحد هو : **المقارنة من أجل بيان القرابة** بين اللغات الهندية الاوروبية » يقول Franz Bopp معرفا اللغة : **أنها الجسم العضوى الحى »**، الا أنه يكتفى فى بعض الاحيان بتشبيهها بـ « **العضوية الحية »** قاصدا بهذا ما نطلق عليه الآن « البنية » • .

وهى أربع نظريات • (1) **النظريات البيولوجية** التى تفترض أن اللغة انحدرت شيئا فشيئا من تطور الحركات والاصوات التعبيرية العفوية • وعليه فان اللغة على هذا نشأت من تقليد الصيحات أو الضجة الطبيعية • وهذا ما يسمى Pooh-pooh Theory (أنظر 2•2•2•) (2) — **النظريات الانتروبولوجية** والذين يرون هذا الراى ينسبون اللغه الى تلك العلاقات التبادلة الرمزية الكائنة بين وقع المصدر الصوتى وبين معناه (ding-dong Theory) أو الى الاصوات المرافقة لجهد عضلى yo-he-ho Theory أو الى تطور الغناء والحركات التعبيرية • ولقد حاولت بعض النظريات أن تعتمد على كيفية اكتشاف الطفل للغة أو على الاشكال اللغوية التى رصدها العلماء عند الاقوام البدائيه أو على أعراض أمراض التخاطب • (3) — **النظريات الفلسفية الصرفة** ، لقد ذهب بعضهم الى أن اللغة فطرية عند الانسان ، وقال غيرهم انها مكتسبة وأنها حصيلة اختراع ارادى ، لكنه طارىء أو هى اكتشاف عارض • (4) — **النظريات** اللاهوتية يعتمد أصحابها أن اللغة هبه من عند الله • صرح بذلك عندنا العالم اللغوى ابن فارس (أنظر كتابه الصاحبى ، صفحة 5) وتبعه قوم وخالفه آخرون

127 — يسمى كتابا Franz Popp
über das Konjugationsystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit jenem der griechischen, lateinischer, persischer und germanicher Sprache.
صدر بـ Iena سنة 1816 •

1 ، 2 ، 6 ، وثيقة الصلة بهذه التعاريف .

ان تعاريف هومبولت ومن شاكله مثل Ramus Rask & Schlegel الدنماركي (128) ، صاحب كتاب : « التحقيق في أصل اللغة الاسكندنانية القديمة أو الاسلندية » ، كانت لها رغبة واحدة هي العثور على مبدأ ومنشأ لغتهم الاصلية ، وخصوصا الجرمانية ، واذا شاعت عند المدرسة كلمة Ursprache وجل أعضاء هذه المدرسة متأثرين ، من جهة أخرى — لربما بدرجة أقل من صاحب التعريف الاتي ذكره — بالعالم الطبيعي السويدي Linné ، وبالعالم الفرنسي Cuvier الذين استطاعا في ميدان تخصصهما ، الحصول على معلومات موضوعية ، واضعين ، في نفس الوقت ، المناهج الصالحة لذلك ، موفقين

128 — كان Ramus Rask ، الذي ازداد سنة 1787 شخصية عظيمة في ميدان علم اللغة ، سيما « القواعد المقارنة » (أنظر الحاشية رقم 125) كما يشهد بذلك Pedersen (أنظر كتابه Discovery) « اكتشاف اللغة » بصفحة 248 الى صفحة 254 » لكن الناس غبطوه حقه ، فلم يتحدثوا عنه الا لماما وبشكل سريع جدا مثل ما فعل العالم الفرنسي Bréal و Raumer الذي أوضح سنة 1870 أن الالماني Jueob grimm مدين في كثير من نظرياته الى جهود Rask . ويجب أن ننتظر الى سنة 1902 لنحصل من مواطن له ، هو العالم اللغوي الدانماركي Thomsen على وصف دقيق لبعض معالم شخصية Rask العلمية . الا أن الذي عرف العالم به حق تعريف هو (مواطن آخر له) العالم اللغوي الدانماركي الكبير Hjelmslev الذي خصه بدراسة عميقة ظهرت سنة 1951 تحت عنوان Commentaire sur la vie et sur l'auvre de Rask نجد فيها تعريفا للغة نقله Hjelmslev عن Rask قال هذا الاخير معرفا اللغة : « ان اللغة ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، وان الدراسة اللغوية هي أقرب الى التاريخ الطبيعي . فاللغة توفر لنا موضوعين للتأمل الفلسفي : 1 — العلاقات بين الاشياء أي النظام . 2 — بنية هذه الاشياء ، أي ، وظائفها . ولا يتم ذلك آليا انما هو تطبيق للفلسفة على الطبيعة ، وأعظم انتصار لهذا التطبيق هو أن يعيننا على معرفة النظام في الطبيعة واثبات حقيقته.» توفي راسك سنة 1832 .

أشد التوفيق فى تصنيف الحيوانات بالمقارنة بين مختلف أجناسها ..

ومن ثم استطاع هؤلاء العلماء أن يبينوا كيف تطورت الاحياء حتى بلغت الى الحالة التى هى عليها الآن .

استغل اللغويون هذا البيان الذى أقنعهم أن اللغة هى أيضا جهاز عضوى مثل الاحياء لأنها مثلها تولد وتنشأ وتكبر وتترعرع وتكتهل ثم تشيخ وتموت تماما كما يقع للاحياء . ولهذا ادرجوا فى تيار ثان (أنظر التيار الاول فى 1. 2. 5.) هو : « **التشبيه بين اللغات والكائنات الحية** » .

1. 2. 7. تعقيب على بعض ما مر

نعلم أن علماء اللغة من العرب الاقدمين توصلوا الى هذه النظرية التى اعتقد بعضنا أن الفضل فى ايجائها لا يعود الا الى Linné (129)و Cuvier (130) (أنظر 1.2.6) وفعلا كتب فيها علماؤنا الاقدمون ما شاء لهم أن يكتبوا ، لكن بدون أية مبالغة ، بحيث لم يشبهوا اللغة بتطور أعضاء الحيوانات والنباتات ، اذ اللغة ، فى نظرهم ، متطورة فعلا ، لكن حسب ناموس آخر ، ليس هذا موضوع تفصيله .

---

129 — هو Carl von Linné عالم اسويدى متخصص فى علوم الطبيعة . اشتهر بتصنيفه للنباتات ولد سنة 1797 وتوفى سنة 1778 .

130 — هو Baron Georges Cuvier متخصص فى علوم الطبيعة ، فرنسى الجنسية ازداد سنة 1769 وتوفى فى نفس السنة التى توفى فيها راسك أى 1832 . مؤسس علم التشريح المقارن وعلم المستحاثات .

وهذه النظرية التى عمل بها علماء اللغة العرب قديما فرع محتواها الامام السيوطى (131) الى ضعيف ومنكر ومتروك من اللغات • فقال : « الضعيف ما انحط عن درجة الفصيح والمنكر أضعف منه ، وأقل استعمالا ، بحيث أنكره بعض أئمة اللغة • والمتروك ما كان قديما من اللغات ، ثم ترك واستعمل غيره ، وأمثلة ذلك كثيرة فى كتب اللغة •

جاء فى جمهرة (132) اللغة لابن دريد نقلا عن أبى عمرو بن العلاء (133) : مضى كلام قديم قد ترك (134) » •

131 — ترك لنا السيوطى ترجمة عن نفسه ، موجودة الان فى كتابه « **حسن المحاضرة** »، الجزء الاول ، صفحة 335 واسمه الكامل هو عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين الخضيرى الاسيوطى ازداد سنة 849 هجرية موافق 1445 ميلادية ونشأ فى القاهرة يتيما • يظن بعض الباحثين أنه ترك 600 مصنفا • واننى لاحاول أن أختم رسالة تجمع جميع مصنفاته أذكر منها التى طبعت ، ويفوق عددها الان 100 وأبين أين توجد الكتب التى ما تزال مخطوطة وستكون هذه الرسالة ذيلا لكتاب السيوطى « المذهب فيما وقع فى القرآن من المعرب » الذى أحققه • توفى السيوطى سنة 911 هجرية موافق 1505 ميلادية •

132 — تعد « **جمهرة اللغة** » لابى بكر محمد بن الحسن بن دريد من مشاهير كتب اللغة التى نسجت على منوال العين كما قال السيوطى فى مزهره (الجزء الاول ، صفحة 92 السطر الثالث) وان طعن فيه ابن جنى وابراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه) لاسباب فى نفسهما ليس هذا مجال بسطهما ...

طبعت الجمهرة لاول مرة فى حيدر أباد بالهند من سنة 1344 الى سنة 1352 فى ثلاث مجلدات ألحق به مجلد رابع خاص بالفهارس بتحقيق وعناية الشيخ محمد السورتى والمستشرق الالمانى Freitz Krenkow الذى ولد فى قرية Schoenberg بشمال المانيا سنة 1289 هجرية موافق 1872 ميلادية والذى اتفق مع « دائرة المعارف » فى حيدر آباد الدكن بالهند على أن يتولى تحقيق بعض المخطوطات العربية ويعلق عليها بما يبدو له • توفى هذا المستشرق سنة 1372 هجرية موافق 1952 ميلادية ، ثم أعيد طبع الجمهرة بالاوفست فى دار صادر ببيروت لكن بدون تاريخ •

133 — سماه الامام شمس الدين أبو عبد الله الذهبى فى كتابه « **معرفة القراء الكبار** على الطبقات والاعصار » صفحة 83 من الجزء الاول : أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العيان • يسميه الاصمعى زبان • ازداد سنة 70 هجرية موافق 690 ميلادية • يعد من أئمة اللغة والادب وهو أحد القراء السبعة • واليه انتهت الامامة فى القرءة بالبصرة • توفى بالكوفة سنة 154 هجرية موافق 771 ميلادية.

134 — « جمهرة اللغة » الجزء الاول ، صفحة 106 العمود الاول ، السطر الرابع عشر.

وجاء فى شرح المعلقات لابى جعفر النحـاس : « قـال الكسائى (135): «محبوب من حببت»، وكأنهالغة قد ماتت (136)»

واقد تنبه لهذه الظاهرة ابن فارس (137) ، فقـال فى باب الاسماء الاسلامية من كتابه « الصحابى (138) » :

« كانت العرب فى الجاهلية على أرث من ارث آبائهم فـى لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلمـا جـاء الله تعـالى بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع أخر بزيـادات زيـدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الاول . »

135 — جعله الامام الذهبى السابع فى الطبقة الرابعة واسمه على بن حمزة بن عبد الله الاسدى بالولاء ، الكوفى أبو الحسن الكسائى . كان اماما فى النحو واللغة والقراءة ولد فى احدى قرى الكوفة . صنف « معانى القرآن » و « المصادر » و « الحروف » و « القراءات » و « النوادر » ومؤلف فى النحو . و « ما تلحن فيه العامة » الذى لم يذكره الاستاذ خير الدين الزركلى فى الاعلام (الجزء الخامس صفحة 93 آخر العمود الثانى) رغم أن هذا الكتاب طبع مرتين ، مرة بعناية المستشرق Carl Brokelmann نشره فى مجلة الاشوريات فى مجلدها الثالث عشر من صفحة 29 الى 46 وثانية بعناية الاستاذ عبد العزيز الميمنى سنة 1344 فى مجموعة تحتوى على مقالة « كـلا » ، وما جاء منها فى كتـاب اللـه لابن فارس ، ورسالة الشيخ ابن العربى الى الامام الفخر الرازى . توفى الكسائى بالرى سنة 189 هجرية موافق 805 ميلادية .

136 — المزهـر فى علـوم اللغة وأنواعها ، للسيوطى ، الجزء الاول ، صفحة 219 .

137 — أنظر ترجمته فى بغية الوعاة 1 / 414 وانباه الرواة 1 / 92 .

138 — يسمى كتاب ابن فارس هذا « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » نسبه الى الصاحب بن عباد .تكفلت بنشره ، لاول مرة المكتبة السلفية بالقاهرة سنة 1328 هجرية موافق 1910 ميلادية . ثم طبع مرة أخرى سنة 1382 هجرية موافق 1963 ميلادية فى بيروت ، قامت بطبعه المكتبة اللغوية بعـد أن حققـه الدكتـور مصطفى الشويمـى .

ثم قال فى باب آخر من كتابه الصاحبى :

« ومن الاسماء التى زالت بزوال معانيها المربـــاع (139) والنشيطة (140) والفضول (141) ولم نذكر الصفى (142) لان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اصطفى فى بعض غزواته، وخص بذلك، وزال اسم الصفى لما توفى صلى الله عليه وسلم (143)

---

139 ــ للفظة المرباع معنيـــان ، اولهما انها تدل على « المكان الذى ينبت نبته . (انظر القاموس المحيط لمجـد الدين الفيروزابادى ، الجزء الثالث ، صفحة 25 السطر الثامن) ثانيهما أنها كانت تدل على ما كان يأخذه لرئيس فى الجاهلية ، وبقدر بربع الغنيمة ، أنظر الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهرى ، الجزء الثالث ، صفحة 1215 العمود الثانى ، السطر الرابع .)

140 ــ جاء فى الصحاح الجزء الثالث العمود الثانى من صفحة 1163 السطر الحـــادى عشر : « النشيطه ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل البلوغ الى الموضع الذى قصدوه . لكن ابن سيدة (أنظر لحاشيه رقم 13) قال : « النشيطة فى الغنيمة ما أصاب الرئيس قبل أن يصير الى بيضة القوم . (نقل هذا السيوطى فى المزهر الجزء الاول صفحة 297 ، الحاشية رقم 1)

141 ــ الفضول : بقايا تبقى من الغنيمة ، فلا تستقيم قسمته على الجيش لقلته وكثرة الجيش . (من حاشية المزهر) . ق

142 ــ الصفى أن يصطفى الرئيس لنفسه شيئا كالناقة والفرس والجارية . والصفى فى الاسلام على تلك الحال. وقد أصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف منبه بن الحجاج يوم بدر وهو ذو الفقار ، واصطفـــى صفيـــة بنت حـــى . (حاشية المزهر 1 . صفحه 297) .

جمـــع هذه الكلمـــات الشـــاعر عبـــد الله بن عنمة الضبى . فقال :

لك المربـــاع منها والصفايـــا * و حكمك والنشيطة والفضول

وابن عنمة الضبى هذا هو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بـــن دؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة ابن أد بن طانجة ابن اليس بن مضر كمـــا جاء فى خزانة البغدادى صفحة 580 وان كانا محققا المفضليات يشكان فى هذا الاسم (أنظر المفضليات صفحة 378) . أما صاحب الاصابة فقد قال عنه أنه كان من المخضرمين . كان ابن عنمة متروجا فى بنى شيبان نازلا فيهم وهو ابن اختهم . ولقد شهد القادسية . اختار المفضل الضبى من شعـــره قصيدتين الاولى هائية وهى من 23 بيتا توجد فى المفضليات فى الصفحات 379 و 380 و 381 و 382 . والثانية لامية من 17 بيتـــا .

143 ــ ذكر ابن فارس كلمات متروكة اخرى نقلها السيوطى فى مزهره ابتداء من صفحة 397 الجزء الاول .

1٠ 2٠ 8 التعريف الثالث

أما التعريف الثالث فانا نجده عند أكبر متحمس للتيار الثانى (أنظر 1٠2٠6) وهو Wilhem von Schleicher (143) الذى كان يطبق فى بحوثه اللغوية ، الداروينية تطبيقا حرفيا ٠

كان هذا اللغوى فى بداية حياته العامية مهتما بعلم النباتات ، ولكن سرعان ما غير الاتجاه ، فأصبح من أساطين علم اللغة ٠

واننى لاشير الى تعريفه من بين التعاريف الكثيرة للاسباب الآتية :

أولا : سلك دائما فى بحوثه اللغوية طريقة دقيقة وصارمة ٠

ثانيا : استطاع أن يبرز علما صوتيا حقيقيايتناول ، لا الحروف كما فعل علماء اللغة قبله وفى زمانه ، وانما صار يبحث تقطيع العبارة والكلمة مع التأكيد على ابراز تغيير نطق الاصوات ٠

حين نصرح بهذا فى حق هذا العالم ، شاهدين له بفضل السبق فى ابراز هذا العلم بهذا الشكل الذى وصفنا ، فاننا

---

143 — ازداد سنة 1821 وتوفى سنة 1867 ٠ فهى حياة قصيرة للغاية ولكنها كانت حافلة ومفيدة ورغم أنه حصل على نتائج فى غاية من الاهمية كما أقول فى (1٠2٠1٠7) فان حكم العالم اللغوى الفرنسى Bréal صائبا عندما قال فى المجلد الاول من Mémoire de la société linguistique صفحة 83 : « صرح مهيب بنى بقليل من السرعة » ورغم حياة قصيرة فقد خلف لنا أبحاثا لا يستهان بها ٠ هى : Handbuch der hitauische sprache « الموجز فى اللغة اللتوانية » ظهر سنتى 1856 — 1857 ٠ و Laut und formenlehre der polabische sprache « الدراسية الصوتية والصرفية للغة اقوام Polabes » الذى لم ير النور الا بعد وفات المؤلف أى فى سنة 1871 ٠ و Linguistiche Untersuchengen, die sprache Europes in Systematischer Ubersich الذى طبع سنة 1850 فى برلين ٠ وأبحاث أخرى كثيرة ٠

نقصد بذلك العالم الغربى وما والاه ، أما ان وسعنا نطاق المقارنة بحيث جعلناها تشمل أيضا عالمنا العربى فاننا سندرك حينئذ انه كان مسبوقا الى هذه النظرية ، وهو ما سنتعرض له فى فترة قادمة (أنظر 1• 2• 9)•

ثالثا : أمكنه لأول مرة فى التاريخ أن يصل الى تحليل لغة شعبية ، غير ادبية ، هى اللغة اللتوانية (أنظر الحاشية رقم 143) حللها تحليلا وصفيا تاريخيا دارسا جميع أشكالها المنطوقة (144) •

يمكننا ، من هنا ، أن نقول ان Schleicher كان أول لغوى فى القرن التاسع عشر بحث اللغة من جانب الاسلوب المقارن وكانه علم لغوى عام منسجم ومتكامل • ولربما فعل ذلك بصورة أكثر وضوحا مما فعله Humboldt السابق الذكر •

وبما أن Schleicher ينطلق من الانتصارات التى حققها عالم الطبيعة Linné (145) الذ برع فى تطبيق الكائنات الحية مؤثرا بذلك كبير الاثر فى اللغويين ! كما ينطلق من نظريات صنوه Cuvier (146) ومن تطبيق الداروينية على اللغات البشرية • فانه صار يعرف اللغة كما عرفها المتأثرون بهذه الافكار ، لكن بصيغة قطعية حاسمة •

---

114 — درسها فى كتاب سماه Handbuch der Litauische Sprache « الموجز فى اللغة اللتوانية » الذى ظهر ، كما قلت (الحاشية رقم 143 سنتى 1856 — 1857 • وهو كتاب اثنى عليه الثناء العاطر العالم اللغوى الكبير meillet

145 — نظر الحاشية رقم 129 •

146 — نظر الحاشية رقم 130 •

وهكذا فان اللغة عنده « **جهاز عضوى قابل للتطور** » ٠ أى انها « ليست ظاهرة اجتماعية بل هى حادث من حوادث الطبيعة أو جهاز عضوى طبيعى ٠٠٠» ومن هنا شعر شعورا واضحا بضرورة فصل الدراسة الانسانية القديمة المسماة بـ « فقه اللغة » عن الدراسة اللغوية الجديدة التى كان يريد أن يطلق عليها « علوم الحنجرة » أو الـ Glottek (147)

1٠ 2٠ 9 ملحوظة على بعض ما جاء فى التعريف الثالث

سبق أن قلنا (انظر 1٠ 2٠ 9) أن Schleicher استطاع أن يبرز علما صوتيا دقيقيا يتناول ، لا الحروف ، كما فعل علماء اللغة قبله وفى زمانه ، وانما صار يبحث تقطيع العبارة والكلمة مع التأكيد على أبراز تغيير نطق الاصوات ثم عقبنا على ذلك بقولنا ان العرب سبقوا الى هذا الموضوع ودرسوه دراسة لابأس بها ٠ بل انهم بالغوا فى التدقيق فيه الى درجة أنهم صاروا يغيرون نطق الاصوات بأمور لا علاقة لها ، فى بعض الاحيان ، بما يمكن أن يقوم حجة على تغيير الصوت ٠

فاذا كنا مزلا نقبل — مع كل التحفظات (148) — أن تحافظ

---

147 — انظر Historia de la lingustica desde los origines al siglo XX ترجمته من الفرنسية Felisa Marcos ٠ صفحة 23 ٠ والكتاب من تأليف الفرنسى Georges Mounin (انظر الحاشية رقم 120)

148 — سيجوز لنا ، ولا شك ، أن نتحفظ حتى فى هذه المسائل التى قبلناها منهم — كدت أن أقول : (قبلنا منهم على مضض — اذ أن حتى فى هذا اللام المفخمة التى اخترناها مثالا شاهدا على تغيير نطق الاصوات عند العرب يسهل الطعن فيها كما سنرى ٠ فأى فضل يبقى لهم فى الموضوع ؟ اعتقد أن فضلهم كان فى أنهم وضعوا قوانين اتبعوها فى لغتهم ، قوانين ان نحن أمعنا النظر فيها ، وجدنا أنها ترتكز ، ان لم تكن على كثير من الصواب ، فعلى قليل منه ٠ الا أن هذا الاساس الذى انطلقوا منه ، أما أنه ضاع لانه آت من نطق شفوى قديم مندثر ، لا سبيل الى وصفه بالدقة العلمية المرجوة ، واما أنه مأخوذ من لغة أو لهجة نعرف خصائصها ونستطيع تحديد بعض اصواتها بدقة ٠ ان

(149) اللام المفتوحة الموالية (150) لحرف من الحروف الثلاثة الطاء والظاء والصاد (151) المفتوحة والساكنة القبلية ، فاننا لا نستطيع أن نقبل ، بسهولة على الاقل فى عصرنا الحاضر ، أن تكون امالة (152) هاءالتأنيث (153) وماقبلهافى الوقف «من طباع

النطق الجديد على اللام ، فى هذه الحالة القديمة التى تهمنا نطق عاد له ما يبرره فى اللغة الاصلية أو فى اللهجة المنقرضة اذا اردت . واحسن مثال يمكن ان نستأنس به الان ونتفق عليه منذ مدة هو لفظ الصلاة . فاذا كانت لامها الآن مغلظة عندنا ، وسيقال لنا لانها توفرت على الشروط الموضوعة من طرف اللغويين الاقدمين ، فان حركتها فى نفسا كانت ضمة طويلة فى اللغة الاصلية العبرية . فليس التغليظ هنا الا تذكيرا بالحركة الحقيقية فى اللغة الام ، وهو تذكير وقع تعزيزه فى المصحف الشريف بكتابة واو زائدة ، غير مقروءة بعد اللام المفتوحة ، كيف تزاد واو بعد فتح ؟

149 — نعرف أن المصطلح « التغليظ » يعنى ما تعنيه لفظة « التفخيم » . والتفخيم عبارة عن ربو الحرف وتسمينه وعكسهما ، هو عندنا « الترقيق » . لكن علماء اللغة العرب ، سيما الذين أهتموا كثيرا بالقراءات القرآنية ، وهى ادق تسمية فى علم اللغة ، درجوا على تسمية « لا ترقيق » فى الراء « التفخيم » . والأصل فى اللام ، كما هو معلوم ، الترقيق ، لا التغليظ ، ولذا لا يرققونها الا بشروط (8-1-2-1) .

150 — أكدوا كثيرا على هذا الشرط رغم انه مفهوم من قولهم « من بعد الطاء والظاء والصاد » (أنظر ذلك فى « النجوم الطوالع على الدرر اللوامع فى أصل مقرا الامام نافع » شرح لشيخ ابراهيم المارغنى ، صفحة 152 ، طبعة تونس سنة 1354 — 1935 .

151 — برروا التغليظ فى اللام أى « تغيير الصوت المصاحب لها لورودها بعد حروف تقتضى نهاية التفخيم لكونها مستعلية ومطبقة ، فغلظت اللام بعدها ليعمل اللسان عملا واحدا ، فتحصل المناسبة » (شرح الدرر اللوامع). آلا أنهم ، حين قرروا ذلك ، لاحظوا أن اللام لا تفخم مع حرف جمع هذه الشروط : الاطباق والاستعلاء ، وهو الضاد . فصاروا يبررون هذا الشذوذ بكون هذا الحرف لا يقترب من اللام كاقتراب الاحرف الثلاثة .

152 — ان لكل لفظ معنيين على الاقل ، معنى فى اللغة ومعنى فى الاصطلاح . أما فى اللغة ، فأحسن تعريف أستطيع أن أقدمه هو ما أورده الجعبرى (ت 732 ه) الذى قال فى كتابه « شرح حرز الامانى » (مخطوط بدار الكتب بمصر رقم 612 قراءات) : « الامالة الانحناء » .

أما فى الاصطلاح ، فان معنى الامالة ، حسب ما عرفها به المبرد (ت 285 ه) ، لاول مرة ، لكن بتعريف ناقص فى كتابه المقتضب فى اللوحة 34 من الجزء الثالث من مخطوط دار الكتب بمصر تحت رقم 1525 : « الامالة أن تنحو بالالف نحو الياء . » وأسميه ناقصا لانه لم يتحدث عن الفتحة التى تنحو نحو الكسرة . وهو أمر تنبه له أبو القاسم عبد الرحمان بن أسحاق

العربية (154)» او يلحون على الخصوص « الذي لغة الناس لا يحسنون غيرها ولا ينطقون بسواها ، يرون ذلك أخف على

الزجاجي (المتوفى سنة 339 هـ) الذى قال : الامالة : هو ان تميل الالف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة نحو قولك عالم وعابد ومساجد ومفاتيح وما أشبه ذلك (أنظر الجمل صفحة 303 من الطبعة الثانية الفرنسية بتحقيق ابن أبى شنب .

ومن اللغويين العرب من لم يستعمل فعل « مال » لتوضيح هذا الصوت وانما استعمل الفاظا أخرى مثل « قرب » . فعل ذلك مكى ابن أبى طالب حموش القيسى (ت 337 هـ) فى كتابه التبصرة (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 23936 ب ، ومنه فى نفس الدار صورة شمسيه تحت رقم 20103) حين قال : « الامالة هو تقريب الالف نحو الياء ». وأضاف بعد كلام طويل التى قبلها نحو الكسرة (التبصرة اللوحه 96). وأنظر قضيه الامالة مس آخر : « واذا قربت الالف الى الياء فى الامالة لم يكن ذلك حتى تقرب الفتحة « الموضح لمذاهب القراء واختلافهم فى الفتح (نسختان خطيتان بالمكتبة الازهرية) للدانى (ت 444 هـ) وكذا رسالة ابن القاصح (ت 801) المعروفة بـ « قرة العين فى الفتح والامالة وبين اللفظين » ، مخطوط لا يكاد يخلو منه بيت بالمغرب . وكذا مصنف « كشف قناع الوهم والخيال عن قواصل الممال وتنسب لابن غازى . وكذلك الشرح الذى انجزه عبد الحفيظ بن على غنيم على أرجوزته هو ، شرح سماه « زوال الجهالة بشرح منظومة الامالة » وهى فى أحكام الامالة على مذهب أبى عمرو ابن العلاء البصرى المازنى . وأيضا كتاب المستشرق الالمانى Max Grunert المسمى Die Imala الذى ألفه سنة 1875 ميلادية والمتكون من خمسة أبواب تصدرتها مقدمة وأيضا كتاب الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبى « فى الدراسات القرآنية واللغوية ، الامالة فى القراءات واللهجات العربية . »المطبوع بمصر ، طبعة ثانية سنة 1971 م موافق 1391 هـ. يطلق المتقدمون من القراء والنحاة على الامالة الالفاظ الاتية الكسر ، البطح ، الاضجاع ، الاشباع ، والالف الممدوح واللى . وذلك الى عصر ابن الجزرى (توفى سنة 833 هـ) الذى خصص الامالة الشديدة بالالفاظ الاتيه المحض ، والاضجاع والبطح والكسر واطلق على الامالة الحقيقية بين اللفظين ، والتلطيف ، والتقليل وبين بين . .

وأما التعريف العلمى الدقيق الذى اطمأن اليه فهو الذى ذكره الدكتور شلبى حين قال : « الامالة ، هى أن تقرب الفتحة قصيرة كانت أو طويلة الى الكسرة قصيرة أو طويلة كانت » (فى الدراسات القرانية واللغوية صفحة 51).

153 — سيلاحظ أننى أميل الحرف لا الحركة ، وقد يظهر ذا غريبا لكثير من الناس . والحقيقة أن هذا مشكل عويص لابد له من بحث طويل ليتضح ، ولكننى أحب أن أقول ، مسرعا ، اننى أفعل ذلك اسوة بعلماء اللغة الاقدمين وعلى رأسهم امام النحاة سيبويه الذى يرى دائما أن الحرف هو الذى يمال (أنظر سيبويه الجزء الاول صفحة 266 السطر الاول و 267 السطر 22 والصفحة 270 السطر 20) .

154 — هذا الحكم نقله عنه ابن الجزرى فى « النشر فى القراءات العشر » الجزء الثانى، صفحة 82 .

لسانهم وأسهل فى طباعهم (155) »•

هذان المثالان اللذان اخذا من اهتمام علماء اللغة العرب الاقدمين مأخذا كبيرا شاهدان قويان — رغم التحفظ الذى أبديناه — على ان العرب سبقوا Schleicher وغيره الى ما يظن بعض الناس أنه من ابتكاره •

1• 2• 10 تعاريف التيار الثالث •

ان نذكر الآن تعريفا من التيار الثالث المعروف بـ **التتبع التاريخى الدقيق والاهتمام بتقنين التطور وتعليله** » ذلك الذى يجعل أساس البحث اللغوى التحليل التاريخى ومنهج الاستقراء لتطور عناصر اللغة ، لانه مذهب عملى علمى يستنبط القوانين الكلية والجزئية من المشاهدة •

ولم نذكر تعريفا من هذا التيار لاسباب منها :

أولا ان أصحاب هذا التيار من «شباب النحاة» Junggrammatik وليسوا بحال من الاحوال من « النحاة المحدثين » كما ترجم ذلك بعض الباحثين مناه ظانين أنهم من « Neo-grammairiens ».

كان أكبرهم سنا لايتجاوز 30 سنة من عمره ، ولذا لم يكن لهم الوقت الكافى ليبلوروا أفكارهم فى تعريفات دقيقة للغة خاصة بهم •

ثانيا لقد تأثروا كلهم تقريبا بالكتاب الذى حول علم اللغة

155 — هذا الحكم المطلق هو حكم الحافظ ابى الخير محمد بن محمد الدمشقى ابن الجزرى (ت 833) ، النشر فى القراءات العشر ، الجزء الثانى ، صفحة 82 ابتداء من السطر 9 .

من علم غامض الى علم دقيق يسعى الى تفسير التغيرات المتوالية بقوانين لا غبار عليها • والكتاب الذى أعنى هو كتاب العالم اللغوى الالمانى Schleicher (1• 2• 9) فى النحو المقارن للغات الهندية ـ الاوربية (156) •

لقد كان لهذا الكتاب ، زيادة على التأثير الحسن الذى أحدثه فى هؤلاء النحاة الشباب دور آخر هو ابراز مدرستهم الى الوجود • ثم عظمت هذه المدرسة الى درجة أن صار جل اللغويين الالمان فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ينتسبون اليها (157) •

ثالثـا كان شغل « الشباب النحاة » الشاغل هو نقض الاوهام التى سادت اللغويين فى الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر • وأهم هذه الاوهام اعتقادهم أن اللغات القديمة أشرف من اللغات الحديثة لتوفرها على أكبر عدد من الاحوال التصريفية والعلامات الاعرابية •

والذى دفع بشيوخهم الى اصدار هذه الاحكام الفاسدة التى تضحكنا الان ، هو اعتزازهم بلغتهم وتعلقهم المفرط بها وجهلهم بلغات مهمة فى العالم •

---

156 ـ يسمى هذا الكتاب
Comprendium der vergleichender grammatik der indorgermanischen Sprachen, kurzer Abriss ciner Laut mal formenlenhre der indogermanischen Ursprache.
طبع سنة 1861 بـ Weimar

157 ـ نذكر هؤلاء على الخصوص العالم A. Leskein واللغوى H. Osthoff وكذا K. Brugmann وهؤلاء عملوا فى مجال علم اللغات الهندية الاوربية ثم جاء بعدهم من عمل فى مجال علم اللغات السامية مثل Nöldeke و C. Brockelmann (انظر علم اللغة العربية مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية للدكتور محمود فهمى حجازى ص 129)

لقد حكموا مثلا على اللغة العربية بأن ليس لكلماتها أصل ونسوا أنهم انما أخذوا المصطلح « الأصل » او « الجدر » الذي يسمونه فى اللغه الالمانيه بـ « Wurzel » وفى الأنجليزية بـ « Root » وفى الفرنسية بـ « Racine » وفى الاسبانية بـ « Raiz » من الكلمة العربية « الجذر » وقت اطلاعهم على ما ترجم فى القرن السادس عشر من كتب النحو العربى قبل أن يطلعوا على ما يشبه ذلك فى نظرية الهنود •

رابعا تمسكهم باطراد القوانين وقبولهم لكثير من العناصر الشاذة ، وهى حالة خلفتها اهم الفيلولوجية القديمة وخصوصا الفيلولوجية الانسية L'humanisme •

ولم يتمسكوا بهذا الاطراد الا لاعتقادهم أنه لا يمكن أن توجد صيغ عن القوانين التطورية الا **لعلة معينة** • لكن هذه العلة — يقول هؤلاء النحاة الشباب — قد تخفى علينا ، اما لعدم اطلاعنا على جميع أطواره وأحواله وظروفه النفسانية والاجتماعية والفيزيولوجية وأما أن هذه الشواذ قد تفسر بالرجوع الى مبادىء عقلية بحتة أو فلسفية ميتافيزيقية أو عوامل اعتباطية خيالية يصطنعها الانسان لارضاء نزعاته الخاصة به أو بقومه •

الا أننا نعرف أن القوانين التى يخضع لها تطور الاصوات مثلا هى قوانين مطردة لا تحتمل الشذوذ غير المعلل (158) •

---

158 — عبد الرحمن الحاج صالح . مدخل الى علم اللسان الحديث . مجلة اللسانيات ، المجلد الثانى بتصرف .

1 · 2 · 11 تعاريف ظهرت بفضل التيار الثالث

لكن اذا جازلنا اهمال تعريفات أصحاب التيار الثالث ، فانه من غير المناسب أن نغفل عن ذكر الاثر العظيم الذى احدثه « النحاة الشباب » فى اللغويين الذين أتوا بعدهم ٠

ويكفى أن نذكر أن العالم اللغوى الفرنسى الكبير Antoine Meillet (159) هو من أعظم اتباع « النحاة الشباب » واشدهم وفاء لمبادئهم واحرصهم على نشر أفكارهم ٠

الا أن هذه التبعية التى لها وزنها الخطير فى تطور علم اللغة الحديث ، قد كان لها خلفيات معقدة ، ان تتبعنا خطوطها الرئيسية ، استفدنا فائدة لا تقدر بمقدار ٠

من المعلوم أن Antoine Meillet هذا المتاثر كما قلنا بما خلفه لنا « النحاة الشباب » لم يكتف بهذا ، بل انه اتصل اتصالا وثيقا ، من اجل ان يتقن دراسة اللغة بالعالم الاجتماعى

---

159 ــ اكتملت شخصية A. Meillet (1866 ــ 1930) بتوجيهات de Saussure فى الوقت الذى كان هذا الاخير يلقى محاضراته فى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا من سنة 1881 الى سنة 1891 ٠ ثم صار Meillet بعد ذلك الاستاذ اللغوى الذى لا ينازع فى مقدرته طيلة حوالى نصف قرن من الزمن فى فرنسا حيث أسس مدرسة « اللسانيات الاجتماعية » ٠ نذكر من كتبه التى يمكن أن يستفيد منها الباحث اللغوى ٠
Linguistique historique et linguistique générale
« علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام » ٠
وهو فى جزأين طبع الجزء الاول منه فى باريس سنة 1926 وطبع الجزء الثانى سنة 1938 ٠ ولقد اعيد طبع الجزء الثانى فى Klincksieck سنة 1951 ٠
وأيضا كتابه Introduction à l'étude comparative des langues Indo-européennes المطبوع بباريس 1937 أى سنة بعد وفاته ٠
وانه لمن المفيد جدا الرجوع الى ما كتب Georges Mounin فى كتابه Clefs pour la sémantique المطبوع بباريس سنة 1975 ابتداء من صفحة 78 الى صفحة 95 حيث تحدث عن فكرة « النظام عند Meillet »
la notion de système chez A. Meillet.

الفرنسى المشهور Emile Durkleim (160) وتبنى مفهومين له ، لهما وزنهما الثقيل فى علم اللغة الحديث .

ومن أجل هذا أعده مرحلة متطورة لرؤى « النحاة الشباب »

أما المفهومين الذين اعتمد عليهما Antoine Meillet فهما :

أولا : المفهوم الذى نسميـه بـ « **التصورات الجماعيـة** »
«représentations collectives»

ومن البديهى أن Durkleim لم يبتكر هذا المفهوم لانه اقدم منه بكثير (161) ، وانما كان له الفضل فى وضعـه فى صيغته الحالية وتجريده ولفت علماء اللغة الذين كانوا فى زمانه

---

160 — عاش Durkleim مابين 1858 و 1917 ، قام فى وجه Durkleim سيما مفهومه الخاص بالضغط الجماعى Contrainte sociale العالم الاجتماعى الفرنسى G. Tarde (1843 — 1904)الذى صار يحارب ما ذهب اليه Durkleim من أن المحبة أو السخط أو الكراهية أو الغيرة التى يظهرها فرد لاخر ليست ظواهر اجتماعية بل انها لا تعدو أن تكون فردية محضة تقع بين الافراد ولا يمكن ، فى نظره بحال من الاحوال أن تعبر ظواهر اجتماعية الا اذا اعتبرت فى لحظة وحدة الجماعة بأسرها أو بأعظم جزء منها بسبب وعى أفرادها الاجتماعى نفسه .
وعلى كل فان هذا النزاع قد أفاد كثيرا موضوعنا علم اللغة (أنظر من أجل ذلك
W. Doroszewski : Durklein et Saussure, journal de Psychologie
ابتداء من الصفحة 82 الى 91 من طبعة 1933 .

161 — ان أول من تكلم عن فكرة تقدم المجتمع على أفراده فى الوجود على أساس أن الشخص ، كعنصر نفسانى اجتماعى ، ووليد الاجتماع والعمران هو ابن خلدون (ازداد سنة 732 هـ — 1332 م ، توفى بالقاهرة سنة 808 هـ — 1406 م)لكن الذى جعل من هذه الفكرة ركنا أساسيا من أركان علم الاجتماع هو A. Comte (1798 — 1856) الذى صرح قائلا : « ان الانسان الحقيقى لا وجود له انما الوجود الانسانية ، حيث أن نشأتنا ونمونا كله راجع الى المجتمع مهما كانت نظرتنا اليهما » . ولقد سبقه ، كما قلت ابن خلدون الذى قال موضحا هذه الفكرة : « ان كيفية انتاج الحياة المادية هى التى يتوقف عليها التطور الاجتماعى والسياسى والثقافى للحياة بأجمعها . فليس وعى الانسان هو الذى يسبب وجوده بل وجوده الاجتماعى هو الذى يسبب وعيه . » وسيكون كارل ماركس (1818 — 1883) من الفكرتين المذكورتين أعلاه فكرة لا تختلف عن سابقيه الا فى كونه جعل كيفية الانتاج هو العامل الوحيد لتطور المجتمع .

لا ينظرون فى اللغة الا الى الجانب الفردى ـ فيزيولوجيا كان أو سيكولوجيا ـ الى أهمية العامل الاجتماعى والى دوره الخطير فى هذا البـــاب •

والتصورات الجماعية ، هى فى اعتقاد Durkleim شىء زائد وخارج عن صفات الفرد ومكتسباته • فهى اذن قاسم مشترك بين جميع الاشخاص بسبب أنهم مجتمعون ومتعايشون ، ومن ثم فان جوهر تصرفات الفرد داخل جماعته ، كيفما كانت دوافع هذه التصرفات ومسبباتها وكيما كانت عواطفه ومنشآت هذه العواطف ، لا تشكل ، بحال من الاحوال ، امـــارة تميزه عـــن الافراد الآخرين ، ولاسمة يتسم بها دون غيره من الناس •

وانه لمن الانصاف أن ننص هنـــا علـــى أن Durkleim هذا لم يكن له هنا أيضا الفضل كل الفضل فى ابراز هذه الأفكار اذ أن كثيرا من الناس سبقوه اليها و لكـــن كـــان له الشرف الكبير فى التنبيه على أن هذه الامور سابقة على وجود الفرد وخارجة عنه ، وستبقى وان ذهب ، وهى ، زيادة على هذا وذاك جبرية لا يملك الا أن يتقبلها ، راضيا أو مكرها ، والا نبـــذه مجتمعه وطرده •

ثانيـــا : المفهـــوم الذى نسميه بـــ « الـــوعى الجمـــاعـــى »
«Conscience collective»

تبنى ، كما قلت أعلاه Antoine Meillet هذين المفهومين مضيفا اليهما ، زيادة على مبادىء النحاة الشباب جانبا نفسانيا للغة ، لكن مغلبا كما هو معلوم الجانب الاجتماعى •

يتضح لنا كل هذا فى مقال نستخرج منه التعريف الرابع•

1 ·2 ·12 التعريف الرابع

قال Meillet في هذا المقال الذي عنونه بـ Comment les mots changent de sens « كيف تتحول معاني الكلمات » : ان اللغة حدث اجتماعى بالدرجة الاولى ، وبالفعل فان تحديدها يناسب تماما التحديد الذى اقترحته Durkleim : **فللغة وجود مستقل عن وجود كل واحد من الاشخاص الذين ينطقون بها رغم أنه ليس لها اى وجود فى خارج المجموعة التى يتكون منها هؤلاء الاشخاص** [162] ، فانها مع ذلك ، وبسبب شموليتها ، خارجة عن كل واحد منهم . والدليل على ذلك هو أنه ليس فى وسع أى واحد منهم أن يغيرها وأن كل تغيير فردى للاستعمال يحدث رد فعل : وأغلب ما يكون الجزاء فى هذا الرد السخرية التى يتعرض لها كل انسان لا يكون كلامه مثل كلام الناس . . . فالصفتان اللتان حدد بهما Durkleim الحدث الاجتماعى أى وجوده خارج الفرد وقسريته ظاهرتان فى اللغة ظهورا بينا . . . (163) .

1 ·2 ·13 التعريف الخامس

أما التعريف الخامس ، فهو التعريف الذى أطلقه عليها العالم اللغوى William D. Whitney (163م) .

---

162 — يكون ما جعلنا تحته سطرا تعريفا للغة من الوجهة الدروكيمية وحسب المفهومين المذكورين (12·2·1) .

163 — عبد الرحمن الحاج صالح . مجلة اللسانيات المجلد الثانى ، صفحة 36 .

163م — هو William Dwight whitney ازداد سنة 1827 (انظر ترجمته بتفصيل فى كتاب la linguistique du XXe siècle لـ Géorges Mounin صفحة 15 .

قال هذا العالم اللغوى الامريكى معرفا اللغة : « **انها ليست قوة من قوة النفس ولا هى فعل الفكر المباشر ، بل أثر غير مباشر لهذا الفكر : انها آلة** »

يظهر بوضوح من هذا التعريف أن وتنى يحاول أن يرد على فكرة العالم الالمانى السابق الذكر Humboldt الذى كان يرى ، كما سبق أن ذكرنا (أنظر 1 ، 2 ، 1) أن للانسان قوة باطنية Innere Kraft فطر عليها دون الحيوانات الاخرى تجعله قادرا على التفكير والتعبير بالكلام فى الوقت نفسه . فالانسان واللغة اذن ، فى نظر هومبولت ، اعتمادا على هذا الاعتقاد ، خرجا الى الوجود معا .

ويحرص Whitney . أشد الحرص على أن يبين للناس ان هذه الآلة ليست منحصرة فى الصوت المقطع وحده ، لان هذا العنصر الاساسى فى اللغة ، هو من بعض الوجوه ، مادى وفيزيائى ، بل ان الصوت ، عنده ، دال على معنى من معانى الفكر ، فاللغة هى اذن نظام Système من الاصوات ، ذو مضمون معقول . وهى تشبه بذلك ، أى بكونها نظاما ، الاجسام

فاللغة عنده اذن هى قبل كل شىء وسيلة التبليغ والتخاطب المنتظمة الاجزاء ذوات البنية Structure المعينة (164) . فاللغة عنده اذن هى قبل كل شىء وسيلة التبليغ والتخاطب

164 — أنظر كتابه The Life and Growth of langage فى طبعته الاولى بيويورك سنة 1876 . الصفحتان 49 و 50 . انظر ترجمته الفرنسية « la vie du langage المطبوع فى باريس بـ Baillere سنة 1877 .

بين الناس ، والالفاظ ، كما يراها Whitney هى بالنسبة الى ذهن الانسان كالادوات بالنسبة الى يديه ، معارضا بذلك كما سبق أن أوضحت هومبولت الذى يرى أن للانسان قوة باطنية innere Kraft فطر عليها تجعله قادرا على التفكير وعلى التعبير بالكلام فى الوقت نفسه • وان الانسان واللغة خرجا الى الوجود معا ، حسب رأى هومبولت •

نستطيع ، مما سبق أن قلناه فى هذا التعريف الخامس أن نستنتج ثلاثة أمور •

1• 2• 14 الاستنتاج الاول

نرى بوضوح أن Whitney يحدد هنا ، ولاول مرة فى تاريخ علوم اللغة مضمون هذا العلم الذى يحرص شديد الحرص على جعله لغويا محضا مبعدا عن ساحته :

أولا : المتخصص الفيزيائى الذى يبحث **فى علم الاصوات** •

ثانيا : المتخصص الفيلولوجى الذى **يدرس النصوص القديمة** والنقوش ويضع لها الشروح المساعدة على فهمها •

ثالثا : المتخصص الفيزيولوجى الذى يدرس **علم وظائف الاعضاء**

رابعا : المتخصص النفسانى الذى يدرس **علم النفس اللغوى** فى عصرنا الحاضر •

خامسا : المتخصص الاثنولوجى الذى يدرس **خصائص الشعوب** والجماعات • وهو بهذا يجعل علم اللغة يضيق ضيقا

مفرطا بحيث لا يبقى له الا المظهر اللغوى المحض الذى يتشعب الى ثلاث مستويات : وضع ، وبنية ، وصورة .

1. 2. 15 الاستنتاج الثانى

ان هذه الافكار التى أثارها هومبولت وتصدى لها وتنى بالنقد والتحليل قد تعرض لها قبلهما ، وبشكل علمى دقيق ، علماء اللغة المغاربة قديما . كان على رأس هؤلاء العلماء المغاربة النحوى المغربى أبو موسى الجزولى المتوفى سنة (606) أو (607) هجرية (165) الذى أجاد الجواب عن هذا السؤال : « هل وضع

---

165 — توفى بمراكش ، قال العباس بن ابراهيم فى كتابه « الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام » انه لازم عبد الله بن برى بمصر (صاحب الحواشى المشهورة على المغرب للحوالينى مخطوط بالاسكوريال رقم 772) كان الجزولى اماما فى العربية ، كما أنه تصدر للاقراء بالمرية وولى خطابة المراكش . عاش وقتا بالمراكس مع امام علماء اللغة بالاندلس أبى على بن الشلوبين (أنظر الحاشية رقم 166). فى عهد المنصور الموحدى . يعتقد المرحوم العباس بن ابراهيم أن أبا على بن الشلوبين غادر مراكش الى اشبيلية بسبب تفوق الجزولى عليه فى عوم اللغة . صنف فى النحو كتابا أسماه « القانون » اعتنى به كثير من الناس فشرحوه . يقول ابن خلكان عن هذا الكتاب : « أنا لا أعرف هذه المقدمة (يقصد أنه لا يفهم ما فيها) وما يلزم من كونى ما أعرفها ان لا أعرف النحو » علق الاستاذ عبد الله كنون على هذا الكلام فقال : « وفى هذا الكلام مبالغة لعل الحامل عليها هو هذه الصياغة المنطقية التى صيغت بها المقدمة (القانون) من الحدود والتصاريف والقضايا الكليا التى تنطبق على الاحكام الجزئية ومهماته فى الفاظ قليلة ، ومن ثم قال فيها مجد الدين بن ظهير الاربلى منهوها بهذه الظاهرة التى كانت سبب التحامل عليها من هؤلاء .

مقدمة فى النحو ذات نتيجة ... تناهت فأغنت عن مقدمة اخرى
حبانا بها بحر من العلم زاخر ... ولاعجب للبحر أن يقذف الدرا

وتسمى المقدمة أيضا بالكراسة والقانون والاعتماد . (النبوغ المغربى فى الادب العربى ، صفحة 152 من الجزء الاول) من كتبه المقدمة فى النحو ، وله شرح عليها . كما أنه ترك لنا الامالى وشرح أصول ابن السراج ومختصر الفسر لابن جنى فى شرح ديوان المتنبى ، كما أن له شرحا على قصيدة بانت سعاد (مطبوع)وشرح القانون أبو العباس الشريشى السلوى زيادة على الشلوبنى (الحاشية رقم 166)

ومن علماء اللغة المغاربة الذين خدموا اللغة العربية خدمة لا تنسى نذكر الامام زين الدين أبا زكرياء يحى ابن معط تلميذ الجزولى المتقدم الذكر . له الفية فى النحو وهو الذى نظم جمهرة ابن دريد وشرع فى نظم الصحاح للجوهرى

الواضح المفردات والمركبات الاسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات ؟» مهتديا فى جوابه الى صواب تل نظيره • نجد الجواب عن هذا وبحوثا لغوية أخرى ، لاتقل أهمية عنها فى مقدمته المسماة بـ « القانون » ، وهى مقدمة شرحها العالم اللغوى الاشبيلى الشلوبنى (166) فى مؤلف سماه « شرح المقدمة الجزولية » الذى يوجد ثلاث نسخ منه فى الاسكوريال (167) •

ولقد كان فضل الجزولى فى توضيح هذه الفكرة عظيما اذ لم يستمد عناصرها ، كما قد يتبادر الى ذهن بعض الناس من

مات سنة 628 هجرية . ومنهم أيضا ابن رشيد (توفى بفاس سنة 721 هـ .) صاحب شرح كتاب سبويه . وأبو عبد الله ابن آجروم (توفى بفاس سنة 723 هـ) وأبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشى ، المعروف بابن البناء العددى (توفى بمراكش سنة 721 هـ) له الكليات النحوية . وأبو زيد عبد الرحمن ابن على بن صالح المكودى الفاسى (توفى عام 807 هجرية) له الشرح المشهور الذى يحمل اسمه على الالفية ، وله شرح الاجرومية ، وله التعريف فى علم التصريف وشرح المقصور والممدود . وللدقون المتوفى سنة 921 هجرية شرح على جمل الزجاجى . (أنظر آخرين فى اللسان العربى وهى مجلة دورية يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربى فى مقال لمدير هذه المجلة تحت عنوان « اللغويون أو علماء العربية فى المغرب . صفحة 304 المجلد العاشر ، الجزء الثالث .)

166 — هو أبو محمد بن عبد الله الازدى الشلوبنى أو الشلوبين من كبار علماء النحو واللغة ولد باشبيلية عام 562 هجرية (1166 م) وتوفى بها عام 645 هجرية (1247 م) . له شرحان على المقدمة الجزولية ، كبير وصغير . وله أيضا تعليق على كتاب سبويه . والشلوبنى نسبة الى حصن « الشلوبين » أو « شلوبينية » بجنوب الاندلس يسميه الاسبان Salobrena . ترك كتابا سماه « القوانين » وهو فى علم اللغة . وقد اختصره فى مؤلف عنونه بـ « التوطئة » . وله أيضا « شرح المقدمة الجزولية (أنظر الحاشية رقم 167) جعله كبيرا وصغيرا على عادة القدماء . كما ترك لنا « تعليقا على كتاب سبويه » شأنه فى هذا شأن جل معاصريه من اللغويين .

167 — يوجد هذا الشرح فى الاسكوريال تحت الارقام الاتية 2 ، 36 و 190 .

شيخه ابن برى (168)، مادام هذا الاخير لم يحط الاحاطة الكاية بهذا المبدأ فى يوم ما من أيام حياته ، حتى يجوز أن نقول انه أورثه تلميذه كما أعتقد أن الجزولى هـو الذى أوحى لابـن أجروم (169) قوله : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » ولا يستبعد أن يكون ابن المعطى النحوى (170) قد أخذ هـذه الفكرة اللغوية العظيمة عنه أيضا اذ أنه التقى به فى مدينـة الجزائر وأخذ العلم عنه ، كما أخذ هذه الفكرة أيضا ابن الحاجب المتوفى سنة 646 هجرية ، ثم بعدهم العالم اللغوى الاندلسى أبو حيان الغرناطى المتوفى سنة 745 هجرية ، وعن ابن المعطى أخذها العالم اللغوى ابن مالك وأثبتها فى صدر الفيته التى يقول فيهـا :

168 — هو عبد الله بن برى بن عبد الجبار المقدسى ،المصرى الاصل ، عالم من علماء اللغة البارزين ولد بمصر عام 499 هجرية (1106 ميلادية) ومات بها سنة 582 هجرية (1187 م) له من المصنفات التى طبعت حتى الان « الرد على ابن الخشاب » و « غلط الضعفاء من الفقهاء » وأما كتبه التى لا زالت مخطوطة « شرح شواهد الايضاح » فى النحو ، و « حواشى على صحاح الجوهرى » و « حواش على درة الغواص للحريرى » و « حواش على المعـرب للجـوالقـى » .

169 — هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجى الفاسى المعروف بابن آجروم النحوى المقرىء الشهير . ولد عام 672 هـ . وتوفى بفاس سنة 723 هجرية ، 1322 م . له زيادة على المقدمة فى النحو شرح على حرز الامانى للشاطبى ونظم فى قراءة نافع سماه البـارع .

170 — هو يحى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى نسبة الى قبيلة زواوة . سكن دمشق زمنا سافر الى القاهرة حيث درس بها وتوفى سنة 628 هجرية (1231 م). له « الالفية فى علم العربية » (أنظر 14.1.2.1) وهـذا كتاب مطبوع متداول . كما طبعت معه ترجمة هولندية وله « الفصول الخمسون لا زال مخطوطا و « البديع فى صناعة الشعر » مخطوط كذلك . وله ممـا لا أعرف له وجودا « العقود والقوانين » ويقال انه فى النحو و « أرجوزة فى القراءات السبع » (أنظر كذلك الحاشية رقم 165 .)

و أستعين الله فى ألفية مقاصد النحو بها محوية
تقرب الاقصى بلفظ موجز وتبسط البذل بوعد منجز
وتقتضى رضا بغير سخط فائقة ألفية ابن معط

1، 2، 16 الاستنتاج الثالث .

ان الفكرة التى عارض بها Whitney العالم الالمانى Homboldt هى التى هيأت فى أمريكا وفى أوروبا ما نسميه بـ « النظم » الذى يعتبر أن لا قيمة للالفاظ ، كوحدات ، الا فى علاقة بعضها ببعض ، وأن استقلالها يكاد يكون منعدما . وهذا النظم مجرأ ، كما هو معلوم ، الى عنصرين عبر عنهما Vendryes تعبيرا واضحا حين قال : « تنتظم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولا التعبير عن عدد من المعانى التى تمثل أفكارا ، وثانيا الاشارة الى بعض العلاقات التى بين الافكار (170) . »

أما الاستنتاج الذى يمكن أن نستنتجه نحن الآن من هذا، هو أن علماء اللغة العرب قد سبقوا ، مرة أخرى ، غيرهم الى التعبير عن هذه الفكرة . قال عبد القاهر الجرجانى (171) : « اعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك :

170 — انظر هذا فى كتابه « اللغة » ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص، طبعة لانجلو 1950 ، صفحة 104 .

171 — عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى ، أبو بكر عالم لغوى كبير وامام من ائمة أصول البلاغة . من كتبه المطبوعة ، الكثيرة التداول : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » و « اعجاز القرآن » و « العوامل المئة » . أما مصنفاته التى لا زالت مخطوطة فهى : « الجمل » وهو فى النحو . و « المغنى » شرح به « الايضاح » و « المقتصد » اختصر به المغنى السابق الذكر . توفى عام 471 هجرية (1078 ميلادية)

أن لا نظم فى الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . هذا مالا يجهله عاقل ، ولا يخفى على أحد من الناس . واذا كان كذلك فعلينا أن ننظر الى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها : ما معناه وما محصوله . واذا نظرنا فى ذلك أعلمنا ألا محصول لها غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر ، أو تتبع الاسم اسما ، على أن يكون الثانى صفة للاول ، أو تأكيدا له ، أو بدلا منه ، أو تجيىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى من كلامه هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر ، فتجيىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الاسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف ، وعلى هذا القياس . (172) »

1 ٠ 2 ٠ 17 خلاصة ما استنتجناه

اذا كان « النظم » هو المهم كما يفهم من كلام الجرجانى ، واذا كان لا بد أن ينظر الى « البناء » لا الى الالفاظ مجردة ان أردنا فهم ما يقول القائل ، فانه يجوز لنا أن نقول ، وبكل تأكيد : أن اللغة لا تقول نفس الشىء أبدا لان التغييرات التى تقع داخل البنيات تبرز فى كل لحظة وحين ، وانه يوجد على مستوى البنية جوانب مقبولة لدى الجميع . ومن هنا حق لنا

172 — عبد القاهر الجرجانى فى « دلائل الاعجاز » الصفحتان 44 — 45 .

أن نصرح من غير تردد : انه يكاد يكون من المستحيل ايجاد جمل جامدة ، مسبوكة على نمط واحد ودالة على معنى واحد في ذات الوقت وفي كل حين .

واذن ، اذا كان كل فرد منا ، يعبر عن بلاغ شخصي ، حين يتكلم ، فأين الرابط الذي يربط بين الموضوعية التي تجعل كل متكلم مفهوما من الجميع وبين الذاتية التي تجعل كل متحدث يعبر عن نفسه في اللغة وبواسطتها ؟ ذلك أن الكلام نظـام ، نظام اللغة ونظام الاشياء الذي يدل عليها ، أي نظام العلاقات التي تحددها اللغة بـين رجل وآخـر . و « دون البنيـة » Infrastructure هو الذي يدفع به في الاخير أن يقول بنظـام العلاقات هذه ، مع أن اللغة سابقة عليه (173) .

واللغة تؤكد وتنفي في نفس الوقت ، لكن الذي تنفيه هو في الحقيقة اهم مما تؤكده ، اذا ما أعتبر أن كل نفي ما هـو الا موقفا من مواقف المعنى المضاد .

يعوض علم اللغة المنطقي ، سواء في الايجـاب أو النفي المنجزين في أشد انفصالهما الازواج المتضـادة ، نعـم / لا ، التشـابه / الاختلاف . وكأنها مفصولة ، وكأن بعضها يحيل على البعض الآخر في نفس الوقت .

لا يكون ، على هذا ، للفظ نفس المعنى أبدا ، ومن هنـا يقول علمـاء اللغة الوجيـدون ان كل خطـاب هو سلسلة من التغييرات انطلاقـا من المـواد اللغويـة (174) .

173 — J.M. Auzias في كتابه Clefs pour le structuralisme ص 31
174 — نفس المصـدر ، ص 33

1• 2• 18 عود الى صاحب التعريف الخامس

أما ان عدنا الى صاحب التعريف الذى نتحدث عنه ، وهو العالم اللغوى الامريكى Whitney ولاحظنا أنه لم يصل الى عمق تفكير Humboldt ولم يكن له سعة اطلاعه ، فاننا لن نتعدى الحقيقة ان قلنا انه يعد من المؤسسين العظام لعلم اللغة البنيوى الحديث • ويكفى حجة على ذلك أن نذكر أنه ألهم ، بفضل آرائه الصائبة فى هذا الباب عالمين بارزين فى هذا الفن هما Ferdinand de Saussure السويسرى و Bloomfield الامريكـــى •

ونعتقد أن Whiney قام يحارب ذلك التيار الثانى الذى عنوناه بـــ « التشبيه بين اللغات والكائنات الحية » (1•2•6) اذ رأى فيه انحرافا خطيرا يصيب فى الصميم مـــا كـــان يراه « العقيدة السليمة » • فلم يقبل ، كما قبل صـــاحب التعريف الثـــالـــث Wilhem Schleicher (1•2•8) أن تكون اللغة ظاهرة من الظواهر البيولوجية فحسب ، ورفض رفضا قاطعا أن يدرج علم اللغة تحت حكم العلوم ، الطبيعية كما هو الشأن عند أصحاب التيار الثانى • وهكذا كفر بما آمن به Schleicher الذى كان يعتقد أن تطور اللغة ناتج عن تعبير فى ذهنية الامة وتطورها ، لانه كان يومن ايمانا لا يخامره شك بأن تطورها هو نتيجة « لاحداث الزمن » ومن ثمه ، فهى « ظاهرة تاريخية منتظمة » •

1، 2، 19 التعريف السادس

لو كنا بصدد تحديد كلمة « لغة » لذاتها ، لجعلنا تعريف Roman Jakobson من التعاريف الاولى التي يمكن ان ننطلق منها لدراسة هذه الظاهرة الانسانية السليمة . ولكننا ، ونحن بصدد محاولة الدخول في أمر نشأة اللغة ، فضلنا أن نبدأ بتعاريف العلماء الذين انشغلوا بأمور ظهور اللغة ولم يأتوا بتعاريف لها الا عرضيا ومن أجل الوصول الى غاية أخرى جعلوها هدفهم الاسمى . وكانت هذه الغاية عندهم الوصول الى اللغة الام ، اللغة الاصلية Ursprache .

أما Roman Jakobson فهو من طراز آخر ، ومن غير زمن هؤلاء الذين تعرضنا لتعاريفهم . انه من عصر تقدم فيه علم اللغة خطوات جبارة لم يبق معها الوقوف عند تحديد كلمة « لغة » أمرا ذا بال ، اذ صار البحث في أجزاء الكلمة وفي أقسام الجملة وفي العلاقات بين هذه الاجزاء وهذه الاقسام قضية خطيرة تشغل البال وتؤجج العواطف ، وتكثر بسببها الخطب الحماسية في المؤتمرات ، ويسيل من أجلها على صفحات المجلات المتخصصة المداد مدرارا .

و Roman Jakobson هذا ، المزداد بموسكو سنة 1896 والمتخرج من جامعة براك Prague سنة 1930 ، المتتبع عن كثب الحياة الفنية ، سيما ما يتعلق منها بالفن التكعيبي والمستقبلي Futurisme المتأثر جدا — بعد أن انتقل عن الصورية — بما يسمى بـ « البنيوية » وبمنشئيها كـ Picasso و Joyce و Stravinski ،

أخذ من أحد أعمدة البنيوية قولة جعلها خطة لنشاطه اللغوى ، قولة ضمنها فى كتابه Selected Wrintings المطبوع فـى لهاى سنة 1962 ، وهى موجودة فى جـزء منـه سمـاه بـ Retrospect صفحـة 632 .

هذه القولة التى اقتبسها من منشىء الفن البنيوى وطبقها على اللغة ، نجعل منهـا نحن التعريـف السـادس . قـال : « أنى لا أومن بالأشياء ولكن بالعلاقات بين الاشياء » .

يترتب عن موقف Roman Jakobson هذا أمران :

أولهمـا : أن Roman Jakobson شغل دورا بالغ الاهمية فى توليد المدرسة الصورية السوفياتية Formaliste الذائعة الصيت التى أنجبت لنا ، من بين ما أنجبت من أعمـال نذكر فتشكر دراسة متينة ودقيقة للغة الشعرية .

هذا التجاوب بينه وبين الصوريين السوفيت هو الـذى دفع به الى الكتـابة عـن Maiakovsky (1930) وعـن Pouchkine (1935) كما دفع به أيضا الى الكتابة عن الشاعرين التشيكيين Erben (1936) و Macha (1938) .

الا أنه — على الاقل فى الميدان الذى يهمنا نحن ، وهـو النشاط الفيلولوجى — بدأ يتحول شيئا فشيئا عن الصوريـة (Formalisme) التى لا تهتم الا بالتقنيات الادبية ليعتنق البنيوية أخيـرا .

ان كلامه فى هذا الصدد (أى حينما اعتنق البنيوية) وان

---

174 — Essai de lingustique générale لـ Roman Jakobson
ترجمه الى اللغة الفرنسية المقدمة ، صفحة 8. Nicolas Ruwet

أتى مختصرا ، موجزا ، مقتضبا جدا ، فهو ينبئنا بما سيكون البحث اللغوى عنده . قال من بين ما قال :

« ان التاريخ الادبى لمرتبط أشد الارتباط « بالانواع » التاريخية الاخرى ، وكل نوع منها يمتاز بقوانين بنيوية خاصة . وانه ليستحيل أن يقع الربط — خارج دراسة هذه القوانين — بين « أنواع » الادب ومجموعات الظواهر الثقافية الاخرى . فحين ندرس نظام الانظمة ونهمل القوانين الداخلية لكل نظام نرتكب خطأ منهجيا فادحا . »

يعطينا هنا بهذه الكلمات القلائل ، النقط الرئيسية لما ستكون عليه برامج الانتروبولوجية (Anthropologie) (175) فى المستقبل .

ثانيهما : ان التعريف الذى أتى به Roman Jakobson والذى طبقناه على اللغة فى نطاق المذهب البنيوى الذى آمن به ايأخذ منطلقه ، ولاشك ، من بحوث العالم اللغوى السويسرى

---

175 — يجمل بنا أن نعرف فى هذا المدخل على الاقل أسماء المذاهب التى اهتمت باللغة وبعض أقطابها . هناك الاجتماع — اللغوى مع Meillet و Sommerfelt وعلم البيان مع Bally وعلم اللغة النفسى مع Sechehaye ثم الوظائفيون مع Frei و Martinet ، فالمقنون الايطاليون مع Deveto و Nenciani فعلماء الاصوات البنيويون مع Karcevskey و Trubecboj و Jakobson فعلم اللغة الرياضى مع Herdan Mandelbrot وعلم الدلالة مع Ullemann و Prioto و Trier فعلم النفس اللغوى (وهو غير علم اللغة النفسى) مع Presson و Osgood والمؤرخيون (لا أقصد المؤرخون وانما أعبر عن Historiciste) مع Pagliaro و Coseriu

Ferd'nand de Saussure أول لغوى (176) تجرأ على تقديم دروس فى علم اللغة العام لطلبة فى كلية وهى دروس نشرها بعده على العموم تلامذته سنة 1916 تحت عنوان « دروس فى علم اللغة العـــام » «Cours de linguistique generale »

1 · 2 · 20 التعـــريـــف الســـابـــع

قـــال de Saussure معرفا اللغة ، باسطـــا نظره فى هذا التعريف : « ان اللغة ، وهى ما هى ، فمن أين نظرنا اليها ، لن نجد فيها بسيطا ، اذ دائما ، وفى كل مكان نرى هـــذا التوازن المعقد للالفاظ المتحاكمة • **فاللغة صيغة وليست جوهرا** »

ولـــ De Saussure هذا يرجع الفضل فى ضبـــط بعـــض المصطلحات التى يحتاج اليها كل باحث فى نشأة اللغة • ذلك أنه فرق بين الدراسة الحركية للغة التى سماها Diachronique (Evolution, dynamique, historique) وهو النشاط اللغوى الذى يهتم بوحدة لغة ما خلال تطورها التاريخى عبر مختلف عصورها •

— 176 F. de Saussure يوم 26 نونبر 1871 • درس فى ثانوية Hofwyl حيث تعلم استاذ Pictet • تعلم الاغريقية والفرنسية والالمانية والانجليزية زيادة على اللاتينية • قرر أن يؤلف « نظاما عاما للغة » فأنهى سنة 1872 جزءا سماه نظرة على اللغات « الذى وجهه الى استاذه Pictet كانت الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب ، أنه يمكن ابتداء من أية لغة أن يصل الباحث الى الجدور الثنائية والثلاثية شريطة أن يضع :
t = d = th و k = q = ch و p = b = f = v.
فشجعه Pictet على المضى فى هذا الاتجاه لكنه نصحه بالابتعاد عـــن محاولة تطبيق نظرياته هذه على « كل نظام عالمى للغة » •
وبعد موت Pictet سنة 1878 ، ظهرت الطبعـــة الثـــانية لكتـــابه Origines Indo-europeennes. Essai de paleontologie linguistique. فكتب نقدا عليه نشره فى جريدة جونيف « يوم 21 أبريل 1878 • وهو نقد يبين بوضوح أن de Saussure أصبح « رجل الاســس » كما نعته Benveniste يظهر ان حب « المقابلة » أضحى مغروسا فيه لا بسبب عادة نظرية فقط وانما أيضا بقرابة سلفية ثقافية •

فاذا أردنا أن نعطى مثالا تطبيقيا لما يهمنا نحن فى هذا الفصل، قلنا ان الدراسة الحركية للغة العــربية هى تلــك الدراسة التى ستبحث فى نصوص قديمة للغة العربية من أمثال ما هو موجود الآن فى كتب الاقدمين كديوان المفضليــات وأخبــار النوابــغ وآثارهم فى الجاهلية وصدر الاسلام وأشعار هذيل ونصوص أخرى قديمة صاعدة مع التاريخ ما صعد الى يومنا هذا •

وقد يقتصر جهدنا على حقبة معينة أقصر من هذه التى سبقت • كأن نقوم بدراسة حركية اللغة العربية طيلة المدة التى عاش فيها الرسول وما بعدها بقليل أو كثيــر فندرس مثــلا الرسالة التى بعث بها الى المقوقس ، والتى بعث بها الى المنذر ابن ساوى وما شابههما من النصوص التى أنشئت فى هــذه الفترة وفى الزمن القليل الذى تلاها ، ندرس اللغة فيهما من حيث تغيرها من فترة الى أخرى •

أقول فرق De Saussure بين الدراسة الحركية (177) للغة

بدأ سنة 1874 يدرس اللغة السنسكريتية فى كتاب Bopp (انظــر 4،1،2، والهامش 125) الذى عثر عليه فى الخزانة العامة لعاصمة بلجيكة • ثم بدأ فى سنة 1875 يدرس ، حسب ارادة أبويه الفيزياء والكيمياء بجامعة جونيف • لكنه لم يكن ليهتم الا باللغة • وفى سنة 1905 تولى تدريس « علم اللغة المقارن » مخلفا على هذا الكرسى الاستاذ Wertheimer ولم يكن De Saussure أجنبيا عن هذه المادة التى يهواها • لقد سبق أن نشر سنة 1877 كتيبا صغيرا تحت عنوان « علم اللغة » وهو الخطاب الذى ألقاه فى افتتاح دروس علم اللغة • أصبح فى ربيع 1876 عضوا فى جمعية اللغــويين بباريس التى أنشئت حديثا • وبهذه الصفة التحــق كطــالب فى الفلسفــة فى الجامعة الالمانية الشهيرة Lespzig وبدأ يدرس فيها ، برضى الجمعية بحثا تحت عنوان Le suffixe T. ثم بحثا آخر تحت عنوان Sur une classe De verbes latins en eo نشرا فى مجلة الجمعية الصادرة سنة 1877 الصفحات 339 الى 369) ثم بحثا ثالثا سماه
La transformation latine de tt en ss suppose t-elle un intermédiaire st. ?
واخيرا بحثا رابعا تحت عنوان
Essai d'une distinction des differents «a» indo-europeens.
لكن اكبر بحث انجزه De Saussure هو فى نظرى «Le mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo europeennes.

وبين الدراسة السكونية Synchronique التى تهتم بوصف « حالة » معينة من اللغة فى فترة ما •

فاذا ما طبقنا هذا على اللغة العربية زمن ما قبل الجاهلية — واقصد قبل زمن امرىء القيس — (وهذا النوع من النشاط النحوى صالح جدا ليطبق ايضا على لغه ميتة) لنقوم بدراسة سكونية للغه العربية القديمة ، اهتممنا بتحليل مجموعة من النقوش القديمة الممثلة لمرحلة ما من حالة اللغة العربية فى عصر من عصورها القديمة ؛ كأن ندرس نقوشا صفوية أو ثمودية أو لحيانية أو سبائية أو نبطيه اذا اردنا أن نعرف « حالة » اللغة العربية القديمة فى كل حقبة من حقبها على حدة •

ومعلوم أن ميزة هذا النوع من الدراسة ، فى أيامنا هذه تتطلب الا تعد الاعتبارات التاريخية ملائمة لدراسة « حالات » اللغة المزمع تحديدها موقتا •

وليوضح أكثر هذا المبدأ ؛ أعطى Ferdinand de Saussure مثالا تطبيقيا حيا بلعبة الشطرنج •

ان حالة رقعة الشطرنج تختلف باستمرار ، أى تتغير حالتها بعد كل تحويل لقطعتين من قطعه أثناء اللعب •

ولكنه ، مع ذلك ؛ يمكن الملاحظ ، كما يمكن لكل لاعب أن يصف حالة اللعب بتمامه انطلاقا من مكان كل قطعة على رقعة الشطرنج • وليس من المهم اطلاقا أن نعرف كيف وصل المتباران الى حالة خاصة من اللعب ؛ فان نسأل مثلا بعد كم تحريكات ، وما هى نوع التحريكات ، وفى أى نظام أو اتجاه

وقع تحويل القطع ، ما دمنا نستطيع أن نصف الحالة الحاضرة لقطعة الشطرنج وصفا سكونيا دون الرجوع الى « اللعبات » السابقة (178) .

هذه الحالة الشطرنجية ، ان طبقناها على اللغة ، قلنا اننا قمنا بدراسة سكونية للغة .

ومن هنا رأى Franz Bopp أن اللغات ، اعتمادا على هذا المثال تتغير باستمرار .

وكما أمكن وصف حالة رقعة الشطرنج فى وقت معين من اللعب ، يمكن وصف « الحالات » المتعاقبة للغة ، كل على حدة ، مرتبطة أو غير مرتبطة بالمجتمع أو الجغرافية . ففى هذه الحالة ، نكون قمنا بدراسة حركية للغة .

لابد لتوضيح هذه المبادىء من ضرب الامثلة ، وهى أمثلة يؤتى بها لاول مرة فى النشاط اللغوى عند العرب فيما أعلم .

ففى اللغة العربية الجنوبية ، مثلا ، فى « حالة » من « حالاتها » ولتكن هذه الحالة عبارة عن فترة ما قبل المسيحية نجد أن اللفظ العربى الجنوبى مثلا « (حكم) » وهو اله من آلهة الساميين لا يدل على « حكمة » ، كما قد يتبادر الى ذهن من ينظر الى اللغة العربية فى حالتها الراهنة ، وانما الى «الحكيم» .

وان اللفظ الجنوبى « ود » لايدل ، هو أيضا على «الحب» كما قد يفهم عندنا حاليا ، وانما على « المحب » .

178 — بتسكين العين وأقصد بذلك « المرة » لذلك جعلتها على « فعلة » وجمعتها جمعا سالما ، وافق ذلك الاستعمال أم لم يوافق ، اذ المعنى الجديد هو الذى يجب أن يولد اللفظ .

والاسم الالهى (سعد) فى الحقبة ذاتها لا يعنى « سعد » أو « هذا » كما قد يفسر الآن فى عصرنا ، وانما كان يدل فى هذه « الحالة » اللغوية على « مسعد » .

يمكن أن نستنتج بسهولة أن أسماء الآلهة فى هذه الحالة المدروسة هى ذات معان وصفية .

كانوا ، فى هذه « الحالة » من اللغة العربية القديمة التى أشرنا اليها يعبرون عن أداة التعريف بـ « آن » توضع آخر الاسم . كانوا يقولون « رحمن أن » فى « الحالة » ذاتها أما نطلق عليه نحن الآن فى «حالة» لغتنا الحاضرة بـ «الرحمن» .

سنستطيع أن ندرس « حالة » أخرى للغة العربية القديمة نهتم فيها بما انشغلنا به فى « الحالة » السابقة ، وهى أداة التعريف ، لكن بشكل حركى بحيث لا نبقى فى « حالة » واحدة ، فنتمكن آنذاك من ملاحظة التغيير الحاصل بين فترة وأخرى أو بين حالتين جغرافيتين متباينتين أو مظهرين اجتماعيين مختلفين . وعندها سنلاحظ أن الاسم الجاهلى العربى الشمالى لا يختلف بين مرحلة وأخرى الا فى أداة التعريف التى تتكون ، كما هو معلوم ، فى اللهجات السامية المختلفة من ضمائر اشارة متباينة .

وهكذا سنجد فى « حالة » رحمن ن » وفى حقبة تاريخية أخرى « ه رحمن » (179)، كما رأينا فى « الحالة » التى مرت بنا آنفا « رحمن أن » .

179 — ما زالت العبرية تعرف اسماءها حتى اليوم بهذه الاداة .

وانه ، ولا شك ، يخطىء من يرى منا أن علماء اللغة العرب لم ينتبهوا الى هذا النوع من دراسة اللغة • هذا النوع الذى ، كان ، كما سبق أن قلنا الفضل فى ايجاده وتوضيحه للنــاس للعالم اللغوى السويسرى Ferdinand de Saussure •

فهذا أبو محمد الحسن بن أحمد بــن يعقوب الهمدانـــى المتوفى سنه 334 هـ • يقوم بدراسة لغوية فى كتابه « الاكليل » لا محيد من وصفها بأنها محــاولة أولية لدراسة حركية للغــة العربية • يقول لنا وهو بصدد وضع شرح لنقش عربى قديم كتب بخط المسند وورد فيه اسمــان من أسمــاء الملوك همــا « علهان » و « ونهفان » ، كتبا برسم يوافق « حالة » اللغــة فى تلك الفترة ثم بدأ عليها مقارنات وخرج باستنتاجات • قال : « كذلك يكتبون ، بحذف الالف اذا وقعت فى وسط الحروف ، وتبعهم المسلمون فى كتابة المصاحف ، فطرحوا ألف « الحمن »، وألف « الانسان » وألف « السموات » ، وكذلك « علهــن » منقوص من « عنهان » و « همدن » من « همدان » و « بنين » من « بنيان » وهذا ما تؤديه أحرف الكتاب ، فأما اللفظ فعلى التمام • وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف مثل « مبعوث » والياء الساكنة مثل « شمايل » والالف الساكنة مثل هلال وبلال وأميال (180) •

---

180 ــ أنظر الاكليل للهمدانى ، الجزء العاشر ، صفحة 16 ، تحقيق محب الدين الخطيب ، طبع بالقاهرة سنة 1368 •

1، 2، 21 كيف بين Saussure الفرق بين تـزامنيـة ووصفية (سكونية وحركية)

أعتقد أنه من المفيد جدا أن أترجم النص الذى أوضح فيه هذا الامر قال :

« قليل هم اللغويون الذين يظنون أن ادخال عنصر الزمـن يحدث لعلم اللغة العام مشاكل خاصة ويجعل علمهم أمـام طريقين متضادين تماما •

هذا وان كثيرا من العلوم الاخرى لتجهل جهلا تاما هذه الثنائية • اذ الزمن لا يحدث عندها اى حدث خـاص • لقد اتضح لعلم الفلـك أن الاجرام السمـاوية يلحقهـا تغييرات ملحوظة ، لذا لم يكن فى حاجة الى أن يجزأ الى شطرين ، وان علم هيئة الارض تعمل دائما على مراحل متلاحقة ، لكنه حينما ينشغل « بحالات » تارة من « حالات » الارض لا يجعل من هذا الانشغال موضوعا دراسيا منفصلا تمام الانفصال •

هناك علم وصفى للحقوق وتاريخ للحقوق ، وليس هناك أحد من الناس يجعل منهما علمين متضادين • ان التـاريـخ السياسى للامم ليتحرك كله فى الزمن ، ومع ذلك اذا أنجز مؤرخ صورة لحقبة زمنية ، فاننا لا نشعر أننا خرجنا من التاريخ • وعلم المؤسسات السيـاسية هو عكس ذلـك وصفى بالدرجـة الاولى ، ولكنه يستطيع ، بمناسبة ما ، أن يتطرق الى موضوع

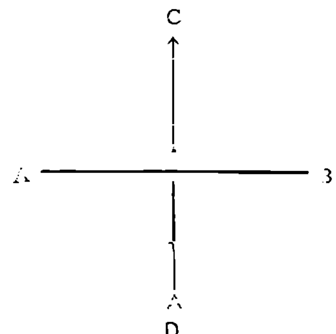
تاريخى ، دون أن تختل وحدته • (181) •

ان الثنائية التى نتحدث عنها لتلازم ، بالعكس العلوم الاقتصادية ملازمة توية • وهنا ، خلافا لما يقع فى الحالات السابقة ، يكون الاقتصاد السياسى وتاريخ الاقتصاد علمين متميزين تماما داخل علم واحد • وان المصنفات التى ظهرت حديثا (182) فى هذين الفنين لتوضح أكثر هذا التباين • وهكذا نستجيب ، دون شعور منا ، ونحن نعالج الامر على هذا الشكل الى ضرورة داخلية فينا • وان ضرورة مماثلة لهذه هى التى ترغمنا على تجزىء علم اللغة العام الى شطرين ، لكل منهما مبدأه الخاص ، نحن هنا ، مثل ما كنا فى العلوم السياسية ، أمام فكرة « القيمة » فالامر يهم ، فى العلمين معا ، نظام التعادل بين اشياء من أصناف مختلفة ، فى الواحد عمل وجزاء وفى

181 — نقد Wells سنة 1947 نظرية De Saussure مؤكدا أننا نستطيع أن ندرس علم الفلك وعلم هيئة الارض وكذا التاريخ السياسى دراسة سكونية كما نستطيع أن ندرسهم دراسة حركية وغاب عنه أن Saussure هو ، فى الحقيقة ، على هذا الرأى الا أنه يريد هنا فقط أن يوضح التدرج الموجود بين علوم يكون العنصر « زمن » فيها مهملا ، أو على الاقل لا ينظر اليه الا على أساس أنه فى درجة ثانوية وبين علوم الاشياء التى لها « قيمة » ويكون التفريق بين عنصريها الزاميا ، وأخيرا بين علوم مثل علم اللغة التى يكون فيها التمييز بين السكونية والحركية حتميا فى كل « حالة » لا تكون فيها « القيمة » الا بين العناصر المتضادة ، بمعنى أن « القيم » لا تكمن الا فى نظام الخلافات (أنظر الهامش رقم 164 من الصفحة 450 من كتاب « دروس فى علم اللغة العام لـ Saussure طبعة Payot 1974 •)

182 — لاشك أن De Saussure يقصد هنا كتاب Carl Menger الذى أصدره سنة 1883 ومؤلف Vilfredo Pareto المسمى Manuale di economia Politica الذى نشر سنة 1906 وترجم الى الفرنسية سنة 1909 وكتابا آخر لنفس المؤلف بعنوان Trattato di sociologio generale

الآخر مدلول (183) ودال (184) ومما لاشك فيه أن جميع العلوم ستستفيد ، أو تسجل ، بكل دقة ، على محورين الاشيـاء التى تهتم بهـا • و لا بـد مـن التمييز ، فى كـل وقت وحين ، وحسب الرسم البيانى الآتى بيـن :



أولا : محور الحدوث الانى (AB) Axe des simultanéités

ويهتم بالعلاقات بين الاشياء المتواجدة التى يكون ادخال فكرة الزمن فيها غير وارد بالمرة •

ثانيـا : محور المتلاحقات (CD) Axe des successivités

الذى لا يمكن ن يعتبر الا شيئا واحدا فى كل مرة والذى يوجد عليه جميع أشياء المحور الاول بتغييراتهن •

ان هذا التمييز سيصبح بالنسبة للعلوم التى تعمل على القيم ، تارة ضرورة علمية وأخرى ضرورة لا مناص منها •

وأننا لنستطيع ، فى هذا الميـدان أن نتحدى العلمـاء أن ينظموا أبحاثهم تنظيما دقيقا مع اغفال المحورين وبدون تمييز نظام القيم فى حد ذاتها واعتبـار هذه القيم نفسهـا بالنسبة للـزمن •

183 ــ أخصص المصطلح « المدلول » لما يعرف عند علماء اللغة المحدثين بــ Signifié والمدلول عليه » لما يعرف عندهم بــ referent ، وأما المصطلح Signe فأقابله باللفظ العربى « الدليل » ، وأما Signification فهى عندى « دلالة »

184 ــ الدال هو ما يعرف عند الاوروبيين بــ Signifiant وقد أطلقت عليه أيضا فى الرقم 183 أعلاه . الدليل .

وعلى عاتق اللغوى تقع مسؤولية هذا التمييز ، اذ اللغة نظام لقيم محضة لا يميزها شيء عدا الحالة الحينية لعناصرها .

فالقيمة ، لها ، من أحد جوانبها ، أصل فى الاشياء وفى علاقاتها الطبيعية بعضها ببعض (شبه ما هو واقع فى علم الاقتصاد ، اذ تقدر قيمة الارض بالنسبة لما تنتجه .) .

ونستطيع ، الى حد ما ، أن نتتبع هذه القيمة فى الزمن دون أن ننسى أنها تتعلق ، فى كل لحظة بنظام قيم معاصرة . وان ارتباطها بالاشياء ، ليمنحها ، رغم كل شيء ، أساسا طبيعيا . ومن هنا ، فان التغييرات التى نلحقها بها ليست بحكمية دائما ، ليست لها أى مكان فى علم اللغة (185) .

نضيف أنه ، بقدر ما يكون نظام القيم معقدا ومضبوطا ضبطا محكما ، بقدر ما تكون الحاجة ماسة ، من أجل هذا التعقيد ، الى دراسته بالتتابع حسب المحورين . وليس هناك أى نظام له هذه الخاصية مثل ما للغة ، اذ لا يلاحظ ، فى اى مجال مثل ما يلاحظ فى اللغة من التدقيق فى القيم ، الموضوعة فى الحسبان ومن العدد الهائل والمتنوع من الالفاظ ، وذلك كله فى استقلال متبادل، غاية فى الدقة . ان تعدد الدلائل الذى أشرنا اليه

---

185 ــ تبين هذه الفقرة بوضوح العلاقة بين تحكيمة الدليل ومنهج التحليل السكونى . ان الدليل اللغوى عنده تحكمى بالدرجة الاولى فى شطريه المدلول والدال . وعليه فان الشيء الوحيد الذى يحدد الصورة الخاصة لمدلول أو دال هو كون المدلولات الاخرى أو الدلالات الاخرى تتواجد معه فى نفس النظام وتحددنه بهذا الشكل وليس غير . معنى هذا من الناحية الموضوعية أن القيمة ، كل القيمة ، لمدلول ما موكولة ، من خلال النظام الى المجتمع الذى يمنح الحياة ، بشكل ما الى النظام بأسره ، أما من حيث منهج البحث ، فمعناه أننا اذا أردنا دراسة دليل فى واقعه كدليل ، وجب أن ننظر اليه فى النظام الذى يستمد منه قيمته ; انظر الهامش 167 فى صفحة 451 من كتاب De Saussure

سابقا عندما فسرنا استمرار اللغة ، ليمنعنا ، منعا كليا من أن ندرس العلاقات فى الزمن والعلاقات فى النظام فى ذات الوقت .

هذا هو السر الذى من أجله نميز بين علمين للغة . فكيف سنسميهما ؟ ان الالفاظ المقدمة ليست كلها صالحة ، بدرجة واحدة ، لتحديد هذا التمييز . وهكذا ، فالتاريخ وعلم اللغة التاريخى» لايستعملان، اذ يوحيان بأفكار غامضة جدا (186).

وبما أن التاريخ السياسى يشمل وصف عصور كما يهتم بسرد حوادث ، فانه من المحتمل أن يظن أنه حين نقوم بوصف الحالات المتعاقبة للغة ، فاننا ندرس اللغة حسب محور الزمن. من أجل هذا يحسن أن ينظر الى الظواهر التى تجعل اللغة تمر من حالة الى أخرى ، منفصلة .

فاللفظتان « تطور » و « علم اللغة التطورى » هما أشد ضبطا ، ولذا سنستعملهما كثيرا .

نستطيع بالمقابل أن نتحدث عن علم « حالات اللغة » أو « علم اللغة الاستقرارى » Lingustique statique (187)

---

186 — تعود F. de S. أن يقابل لفظة « تاريخ » بلفظة « وصف » الذى تعادل عنده « متحرك »Diachronie» ولقد استعمل F. de S. لفظة « تاريخ » فى معنى مغاير جدا ، وذلك فى الدرس الافتتاحى الذى ألقاه بجونيف والذى ذكره Engler سنة 1966 . قال Ferdinand de Saussure

« بقدر ما ندرس اللغة ، بقدر ما نزداد يقينا من أن كل ما فى اللغة « تاريخ » بمعنى أنها موضوع تحليل تاريخى وليس موضوعا مجردا ، وانها تتكون من وقائع لا من قوانين . وكل ما يظهر أنه عضوى فى اللغة ما هو فى الحقيقة الا عارض يمكن أن يحدث كما يمكن الا يقع أبدا .»

وقال مرة أخرى : « ليس لاى قانون يتحكم فى الفاظ معاصرة معنى لازما .»

أنظر الحاشية رقم 41 من كتاب « دروس فى علم اللغة العام » صفحة 416

187 — يظهر أن F. de S. كان مترددا بالنسبة لاستعمال اللفظتين « استقرارى » « متطور » . ويكفى ، اذا أردنا أن ندرك ذلك أن نعود الى المراجع المخطوطة التى خلفها لنا F. de S. أو الى Lexicue de la terminologie saussurienne لصاحبه R. Angler والمطبوع سنة 1969 فى Utrecht-Antwerp

ولكى نحدد أكثر هذه المقابلة وهذا التشابك فى هذين النوعين من الظواهر المتعلقة بنفس الموضوع ، فاننا نفضل أن نتحدث عن « علم اللغة السكونى و « علوم اللغة الحركى (188) كل ما يتعلق بالمظهر الاستقرارى من علمنا فهو « سكونى » وكل ماله اتصال بالتطور فحركى ، كما أن « ساكن » و « متحرك » يعبران بالتتابع على « حالة » لغوية و « مرحلة تطورية » •

2 ، 2 تعريفنا

1 ، 2 ، 2 تمهيد

يصعب علينا أن نكون لانفسنا تعريفا شاملا ، دقيقا للغة ، سيما وقد أصبح علمها — من جهة — علما متشعب الفروع ، متعدد الجوانب ، ذا أفق متسع وقعر عميق ، بعد أن كان — من جهة أخرى — علما مهملا اذ لم يحظ من طرف الاقدمين بالعناية التى كان يستحقها أو على أصح تعبير لم يعالج بالمنهج العلمى الرصين الذى كان فى امكانه أن يبرزه علما محترما قائم الذات• وهو يشارك معارف قديمة ، قدم الانسان على الارض ما دامت اللغة هى الآلة التى لازمته منذ كان ، لكنه يعد ، فى نفس الوقت، علما حديثا لانه لم يدرس دراسة علمية منهجية الا حديثا جدا •

---

188 — انطلقت هاتان اللفظتان انطلاقا كبيرا واشتهرتا اشتهارا عظيما بعد F. de S. الا أنه يعتقد أنه لم يكن له الفضل فى ابتكار الا لفظة « حركى » Diachronique ذلك أنه سجل لاول مرة ، فى دفتر ظهرت فيه حتى لفظة Semiologie علم الاشارة وهو دفتر كتب قبل سنة 1894 • (أنظر الحاشية رقم 169 من كتاب F. de S. صفحة 451 •)

وان الناس ابحاو لهم ، كل حسب هواه أن يـروا وقتـا معينا لنشوء هذا العلم. أما نحن العرب، فان كثيرا منا يعتقد أن ظهور علم اللغة برز بشكل أولى طبعا ثم صار ينمو ويترعرع مـــــع :

أولا : نصــائح أبى الأســود الدولى (توفى سنة 69 هـ) المقدمة لتلاميذه .

ثانيـــا : توجيهات نصر بن عاصم الليثى المتوفى سنة 89 هـ.

ثالثـــا : دروس الأخفـــش الأكبـــر المتوفى سنة 110 هجرية والموجودة الآن فى كتابه « معانى القرآن » .

رابعا : موافق عبد الله بن اسحاق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧هـ

خامسا : تلميحات يحى بن يعمر المتوفى سنة 129 هجريه .

سادسا . مؤلفى عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة 149 هـ . صاحب كتابى الاكمال والجامع فى النحو .

سابعا : محاضرات أبى عمرو بن العلاء ذى العلـــم الواســع المحيط بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، المتوفى سنة 154 هـ .

ثامنا : نظريات الخليل بن أحمد الراهيدى المتوفى سنة 170 هـ

عاشـرا : مبادىء امام النحاة سيبويه المتوفى سنة 183 هجرية تلك المبادىء التى أجملها فى مؤلفه « الكتاب » .

الحادى عشر : تصانيف معاذ الهراء وأخيه أبى جعفر محمد

---

189 — اثبت قصدا مع كل لغوى وغاته فى صلب الموضوع ، لا فى الحواشى لاثير اكثر الانتباه الى تطور علم اللغة عند العرب الاقدمين .

الرؤاسي صاحبي كتاب الفيصل ، أول مصنف في النحو الكوفي ، من طائفة الشيعة • توفي الهراء سنة 187 هجرية ومات الرؤاسي سنة 190 هجرية •

لكنه لم ينتصب علما قائما بذاته الا في بحر القرن الرابع الهجري مع أمثال ابراهيم ابن السري المعروف بالزجاج ، المتوفى سنه 311 هجرية صاحب « معاني القرآن » و « الاشتقاق » وفعلت وافعلت » ومع أبي بكر محمد ابن الحسن بن دريد ، المتوفى سنة 321 هجرية صاحب « الاشتقاق » و « الملاحن » و « الجمهرة » ، ومع الانباري المتوفى سنة 328 هجرية صاحب « كتاب الاضداد » • ومع أبي علي اسماعيل بن القاسم المعروف بالقالي المتوفى سنة 356 هجرية صاحب كتاب « الأمالي والنوادر » و « البارع » و « المقصور والممدود والمهموز » • ومع أبي منصور محمد ابن أحمد الهروي المعروف بالازهري ، المتوفى سنه 376 هجرية، صاحب المعجم المشهور بـ « التهذيب » ومع أبي بكر محمد ابن الحسن الزبيدي الاشبيلي المتوفى سنة 379 هجرية ، صاحب « مختصر العين » •

ثم وصل هذا العلم الى أوج ازدهاره مكتملا مع اواخر هذا القرن وأعني القرن الرابع بفضل جهود أمثال ابن جني وابن فارس الذين سنفرد لهما حيزا مهما في جزء آخر من هذه التوطئة •

—

هكذا يرى بعضنا نشوء علم اللغة عند العرب ، أما عند غيرنا وفي الغرب على العموم فانهم اختلفوا في ذلك اختلافا

كبيرا • فمنهم من يرى أنه نشأ مع القرن الخامس قبل المسيح ومنهم من يعتقد أنه لم يستتم علما مميزا عن غيره الا فى سنة 1816 ميلادية مع نشر Franz Bopp لكتابه فى المقارنة بين اللغات (أنظر 1• 2• 5) ومنهم من يرى أنه برز علما ناضجا بعد سنة 1916 ميلادية حين نشر طلبة Ferdinand de Saussure محاضرات، الاستاذ الكبير على الناس ، ومنهم من يؤخر ظهوره الى سنة 1926 مع أعمال Troubetskoy أو حتى سنة 1956 مع Noam Chomsky

وعلى كل فانه لم ينتشر فى المغرب ويدخل الجامعات دخولا رسميا الا بعد 1950 •

من أجل ذلك كله صعب علينا أن نكون لانفسنا تعريفا للغة يشفى غليانا •

2• 2• 2 تحديد مجال التعريف

فاذا أردنا ، اعتبارا لهذه الصعوبة ، أن نجد تعريفا للغة نركن اليه باطمئنان ، ولا يترك ، بحال من الاحوال المجال للاخذ والرد ، بحيث لا يشمل كل التعابير المعروفة وغير المعروفة ، بل يقتصر فقط على لغة الانسان ، ويساعدنا على الدخول مباشرة فى دراسة حقيقية للغة ، كان لزاما علينا اعتبار مسائل ، منها :

أولا الرأى المعقول القادر على ابعاد ما استنتجه Vendryes ، الذى ، حين سمع الفلاسفة يعرفون اللغة بأنها « **وسيلة التعبير عن الافكار** » استنتج : « أن جميع

الاعضاء تستطيع اذن أن تخلق لغــة » (190) •

وهو استنتاج انطلق منه العالم اللغوى Guilio Berioni سنة 1938 ايتول : « ان الايماء لغة ، وأن الضحك لغة » •

ولقد أصبغ Georges Mounin ، سنة 1968 علــى هــذا الاستنباط شمولية بتوسيعه الى مستويات آخرى ليسهل عنه الجواب عن السؤال المشهور الذى شغل النــاس حقبة ليست بالقصيرة ، ذلك السؤال هو : لماذا لا يهتم اللغويون بكل هذه اللغات المزعومة ؟ » قال Georges Mounin : « ان الرسم سيكون على هذا التأويل لغة ، وان الموسيقى والنحت يصيران لغة ، وان السينما وجميع المعارض ومبارة للملاكمة ، وحفلة دين ، ولقاء رياضى لكرة القدم ، وقانون السير والامارات البحرية ، وغناء الطيور ، وصراخ القرد والوعل ورقص النحل واحتكاك أقران النمل كلها علامات وكلها لغة (191) » •

أما الرأى المعقول الذي يمكن أن نعتمد عليه لرد هــذه الاستنتاجات غير الصائبة ، فهو ان التركيب الفيزيولوجــى للانسان هو غيره عند الحيوانات ، اذ أن خلقة هذه خاليــة مما نطلق عليه الجهاز الصوتى ، سواء ذلك الجهاز الصانع للغة المنمى لها أو ذلك الجهاز العضلى العصبى الذى يلتقطها ، خاص بالانسان وحده •

فاذا ما قبل ان الطيور زودت بجهاز للتحليق لم تزود بــه

190 — مثل ما استنتج أيضا Jespersen حين قال : « ان أية وسيلة للتبليغ بين الاحياء هى لغة » (أنظــر Encyclopedia Britannica

191 — أنظر Linguistique فى سلسلة Seghers رقم 1 المطبوع سنة 1971 ، صفحة 30 •

الحيوانات الاخرى غيرها ، واذا كان الفضل فى عيش الاسماك على مختلف أنواعها وأحجامها تحت الماء يعود الفضل فيه لجهاز خاص أودع اجسامهـا لم يودع مثله فى أجسـام الحيوانـات الاخرى ، فانه يحسن الا يرى أحد غرابة فيما ذهبنا اليه من استئثار الانسان بجهاز للنطق خاص به غير متوفر عند غيره •

ولا يهمنا الآن متى وفق الانسان فى استعمال هذا الجهاز وهل بدأ حياته على الارض صامتا ، قبل أن يعى أن له جهازا يستطيع أن يستغله للتعبير عما يريد ، كما يبحث عن ذلك العالم اللغوى Révész فى كتابه « نشأة اللغة وما قبل التاريخ » أو ان ارادة التعبير عما يجول فى خاطره لم تبرز كما يحاول أن يشرح لنا ذلك R. R. Schmidt فى كتابه « فجـر العقـل الانسـانى (193) » الا بعد أن تهذب الفكر الانسانى نفسه (194)، أى منذ حوالى 30•000 سنة • وهـو الوقت الذى ظهر فيه الانسان العاقل (195)، على الارض ، بقدر ما يهمنا أن نعلم أن هذه الافكار وعلى الاخص تلـك التى توجد فى صـدر هذا الرأى ، درسها أجدادنا بكيفية لم يصل اليها بعد علماء اللغة فى الغرب • وها هى رسائل الصفـا وخلان الوفـا شـاهدة على ذلك • فهى لا تعرف لنـا الكلام بقدر مـا تبين ــ وحسب النص الذى سنورده منها أسفله ــ العلاقة بين اللغة والفكر • قال أصحابها : « وذلك أن النطق اللفظـى انمـا هو أصـوات مسموعة لها هجاء ، وهى تظهر من اللسان الذى هو عضو مـن

193 ــ أنظر على الاخص صفحة 260 وما بعدها من النص الالمانى المطبوع فى باريس سنة 1936 •

194 ــ صفحة 52 من النص المترجم والمطبـوع فى باريس سنة 1950 •

195 ــ « **اللسـان والانسـان** » للدكتور حسن ظـاظـا صفحة 45 •

الجسد ، وتمر الى المسامع من الآذان التى هى آعضاء من أجساد أخرى ، وأن النظر فى هذا المنطق والبحث عنـــه والكلام على كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعانى يسمى علم المنطـــق اللغوى ، وأما المنطق الفكرى الذى هو أمر روحانى معقول ، فهو تصور النفس معانى الاشياء ذاتهـــا ورؤيتهـــا لرســـوم المحسوسات فى جوهرها وتمييزها لها فى فكرتها وبهذا النطق يحد الانسان ، فيقال : أنه حى ناطق مائت ، فنطق الانسان وحياته من قبل النفس ، وموته من قبل الجسد ، لان اســـم الانسان انما هو واقع على النفس والجسد جميعا • »

وانه لفخر لنا عظيم أن نرى علماءنـــا الاقدمين سبقـــوا غيرهم الى القول بأن « الكلام عند الانســـان لا يتوقـــف على مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعـــى فى الصيـــاح أو تقطيعه الى حروف ذات مخارج متميزة • »

يمثل هذا الفريق من علمائنا ، زيادة على أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى ومعاصرهما ابن فارس أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الذى قال فى كتابه « الحيوان » مفرقا بين صياح الحيوانات ولغة الانسان : « وزعم صاحب المنطق أن كل طائر عريض اللسان ، فالافصاح بحروف الكلام من أوجه ، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان ، وكذلك الخنزير • وقد تهيأ للكلب مثل عوعوووو وأشباه ذلك ، وتهيأ للغراب القاف وتهيأ للببغاء من الحروف أكثر . فاذا صرت الى السنابير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير ، ومتى أحببت أن تعـــرف ذلـــك فاسمع تجاوب السنابير وتوعد بعضها لبعض فى جوف الليل .

ثم احص ما تسمعه وتتبعه وتوقف عنده ، فانك ترى من عدد الحروف ما ان كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات ، ثم ألفتها ، صارت لغة صالحة الموضوع ، متوسطة الحال ، واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر كثرة العدد وقلته ، وعلى قدر مخارجها وخفتها ، وسلسها وثقلها وتعقدها فى أنفسنا (196) . »

ثانيا الرأى السديد القادر على ابعاد المعتقد الفاسد القائل أن الكلام غريزة أصلية فى الانسان وأن طبيعته مميزة به.

ومعلوم أن الذين يذهبون هذا المذهب يسوون بين تعلم الانسان المشى مثلا وبين تعلمه الكلام ، وليس بينهما فى حقيقة الامر أى تشابه . ذلك أن الطفل يبدأ فى المشىء عند ما تصل قوته العضلية والعظمية والعصبية الى مستوى معين ، وان لم يساعده أحد ، لانه هو وحده يبذل الجهد دون أن يرشد اليه ، وهو وحده ، وتلقائيا ينهض على قدميه شيئا فشيئا ، يكبو ثم يستقيم ليعاود المشى من جديد الى أن يتمرن عليه . ثم يتعدى مرحلة المشىء المتعثر البطىء الى المشى العادى ، ثم الجرى .

أما الكلام فأمره شىء آخر ، اذا أردناه أن يتكلم لقناه ذلك ، فان تركناه وحده منعزلا عن الانسان الناطق لن يتكلم حتما لانه لم يكن تعلم كيف يعبر عما يدور فى خلده . وبهذا يتضح فساد الرأى القائل بأن الكلام غرزية أصلية فى الانسان .

ثالثا الرأى القوى القادر على ابعاد ما ذهب اليه بعض اللغويين من أن المادة الاساسية فى الفاظ اللغة ، وهو الصوت،

196 — كتاب الحيوان ، الجزء الخامس ، ابتداء من صفحة 186 من طبعة بيروت .

يحمل فى جرسه ما يوحى بمدلول هذه الالفاظ • بمعنى أن الهيكل المسموع للالفاظ يحاكى أصوات الطبيعة ؛ ثم صار هؤلاء يصنفون هذه الالفاظ التى اكتسبها الانسان بالفطرة كما يدعون، حين قلد الاصوات المنتشرة فى الطبيعة ، الى مجموعتين ، مجموعة ألفاظ الانفعال ومجموعة الفاظ ذات الجرس المعبر •

أما المجموعة الاولى فهى التى تعبر عن الحسرة والالم والحزن والدهشة والتعجع والاستغراب ، وما الى ذلك •

آمن بهذه النظرية التى تعد بحق المنطلق الرئيسى للبحث العلمى فى قضية « نشأة اللغة » العالم اللغوى الكبير ابن جنى الذى ما فتىء يعرضها على طول مؤلفاته وعرضها ، معتقدا أنها نظرية متينة لا يمكن أن يتسرب الشك اليها •

قال مؤيدا هذه النظرية : « وذهب بعضهم الى أن اصل اللغة كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح ، وحنين الرعد وخرير الماء وشجيج الحمار ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد • وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل (197) • »

كما آمن بهذه النظرية وأيدها أكثر ابن بابشاذ (198) المتوفى سنة 467 هـ (1077 ميلادية) الذى لم يكن يترك فرصة تمر دون أن يبين صلاحيتها •

---

197 ــ الخصائص ، الجزء الاول ، صفحة 4 ، السطر الرابع عشر .

198 ــ طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصرى الجوهرى أبو الحسن ، امام عصره فى علم النحو • من مؤلفاته المقدمة فى النحو (لا زال مخطوطة) ، « شرح الجمل للزجاجى النحو (مخطوط ايضا) ، « شرح الاصول لابن السراج • انظر ترجمته فى الجزء الاول من الوفيات ، صفحة 235 وفى بغية الوعاة ، صفحة 272 ، وغيرهما •

وانه ليسهل علينا بيان خطأ هذه النظرية فى هذه المجموعة ذلك أن ما نستعمله من الالفاظ الداخلة فيها لم يقتبس بعينه من الاصوات اللاارادية للطبيعة ، اذ لا يمكن أن يكون وجود صوت منها — على فرض وجوده ، ولو بصفات تقريبية — فى الالفاظ المستعملة عند الانسان فى هذا الباب دليلا قويا على تأصل ألفاظ الانفعال من الصيحات الطبيعية ، لسبب بسيط ، وهو أن ما نسمعه من الطبيعة من ضوضاء وجلبة لا ينطبق على ما يصدره الانسان من أصوات لا شعورية صادقة فى حالات انفعاله ، والصيحات الطبيعية ، زيادة على ذلك ، ثابتة على وضع واحد لا يتغير ، وضع ليس له وجود فى لغة الانسان ، ولا يستعمل بذاته فى التبليغ والتخاطب بين الناس .

واذا تشابه صوت منها بصوت يقاربها فى وجه من الوجوه فى لغة الناس ، واستعمل فى شعر أو نثر ، وكانت له دلالة مقبولة عند بنى الانسان ، فلأن ذلك ناتج ، أما عن سياق حال مؤثر بمعناه الاجمالى ، لا باجزائه كل على حدة ، واما أن اللفظ الطبيعى — ان تبلنا تجاوزا انه مستمد من صيحة لا ارادية طبيعية — يفسر بما يصاحبه من ألفاظ لغوية لها دلالتها بعيدة عن الطبيعة .

ومع كل هذا يبقى التصور الذى يوحى به هذا اللفظ الطبيعى ، بالرغم عن كل شىء ، باردا لا يوقد شعورا ولا يوحى بجمال .

يمكن أن نستشهد الوجه الاول ، أى حين يكون سياق الحال مساعدا على التفسير ، ببيت ابن أبى ربيعة ، وهو يتغزل على

طريقته بامرأة قادت « خافقا نزل على مكان حساس من صدرها لا يراه ابن أبى ربيعة الا سالت لعب فيه ، واندفعت ، دون شعور منه التنهدات والحسرات على هذه القلادة المحظوظة ، المنزلة مقاما محمودا ، أغلى امنيته الاستئثار به هو دون غيره .
قـــال :

قادوها من القرنفل والدر سخافا ❋ واهـا لـه من سخـاف

فمداول هذه الصيحة اللاارادية الطبيعيـة لا يستقيـم ، وبالتالى لا يؤثر فى النفس الاثر البليغ المحرك الشعور الا بسياق حال أجاد سبكه وأحسن تمثيله الغزل المتهتك على الشكل الذى وصفناه قبل قليل .

ويمكن أن نستشهد للوجه الثانى ، أى حين يفسر الصوت القصير الدال على الانفعال والمرتد الى صيحة لا ارادية طبيعية بما صاحبه من ألفاظ لغوية لها دلالتها فى حد ذاتها ، (دلالة موجودة طبعا فى معجم اللغة) . ومع ذلك يبقى التصور ، رغم هذا التفسير باردا ببيت للمتنبى يتوجع فيه من شدة الالم الذى تركه فى نفسه بعد الحبيبة . قال :

أوه بديل من قولتى آها ❋ لمن نأت و البديل ذكراها

فأين هذا الجمال المستحوذ على الالباب ؟ أين هذه الروعة التى يفتتن بها كل قارىء وسامع ودارس اشعر المتنبى ؟ لقد ذهبت بكل هذا الصيحة الطبيعة التى لم تفهم حق الفهم ، ولم تدرك ، كما أراد لها الشاعر أن يدرك الا بمصاحبها للالفـاظ « بديل » و « نأت » و « ذكراها » .

وأما المجموعة الثانية ، أى صاحبة الجرس المعبر والتى يطلق عليها المحدثون من علماء اللغة التركيب الاغريقى « أونوماطوبية » • وهو تركيب مكون من لفظتين من « اسم » بالاغريقية ὄνομα ، ονοματος ومن الفعل « خلاق » ποιέω فالترجمة الحرفية لهذا التركيب هى « خلق الاسم » ومعناه : صفة الاسم ذى الجرس المعبر عن الشىء المتكلم عنه » وبعبارة أوضح « كلمة مخلوقة توضح الصلة بين اللفظ والمدلول»

ومعلوم أن الذين ذهبوا هذا المذهب هم أولئك الذين اعتنقوا النظرية الداروينية المشهورة الخاصة بتطور الكائنات الحية • وواضح أن مفهوم نظرية داروين لم يقتصر على التطور الجسمانى وانما قام يربط بين نشأة اللغة وبين الصيحات اللاارادية الطبيعية ، سواء صدرت هذه الاصوات عن غريزة أو عن انفعالات ، ثم جعلها الاس الاصيل لغة بنى البشر •

والفرق كما نرى ، واضح بين المجموعتين • فاذا كانت ألفاظ الطائفة الاولى تتكون من صيحات فطرية عريقة فى البساطة يمكن أن تعكس فى بعض الحالات النادرة مردودا لغويا، فان الفاظ المجموعة الثانية تقليد صوتى مرتب لما يسمع عادة فى الطبيعة من ضوضاء وجلبة • وأحدث من أوضح هذه النظرية بشكل علمى بديع ، العالم الانجليزى R. H. Robins الذى قال : « تحتل اللغة مكانة بارزة فى ميدان الانظمة الرمزية وذلك لسببين على الاقل •

أولا بينما تسعى الاشارات الموجودة على الخرائط والطرق وغيرهما أن تمثل بشكل بديع الاشياء التى تعنيها نر ألفاظ لغة

مـا لا تشير الى واقع معاش أو الى جزئيات الحياة الا حين يتعلق الامر بكلمات الجرس المعبر (الانوماطوبية)

ان العلاقة بين رنـين Sonorité الكلمـات مثل Coucou Cocorico et meumeu et Cricri الخ لموجودة فعلا •
كما أننا نستطيع أن نعثر في مجموعات من أوزان أكثر اتساعا ، اشتراكا اقوى بين الصوت ونوع الشيء أو تطوره •

وهكذا فان كثيرا من الالفاظ الانجليزية المختومة بـ Ump مثل Ihump (ضرف) و Clump (مطرقة) و Stump (قطعة) و lump (وضع ايداع) تحاول أن تعبر عن الثقل والسماكة والغباوة • ولقد كشف الكتاب ، بطريقة تجريبية عن كلمات اخترعت ، اختراعا مثل takete et Comboolu et maluma و keberiki تعامل بنفس الدرجة من طرف الذين يسمعونها للمرة الاولـى ، والذين يطلب منهم أن يضعوهـا في احـدى الرسمين : الاول مدور والثاني حاد • وهكذا شوهد أن الكلمتين الاولين تجدان مكانهما دائما بالرسم الاول بينما نرى الاخرين في الثـانـي •

ومع ذلك فان ألفاظ الجرس المعبر وذات الرمز الصائت في اللغة ، وان كانت ذات أهمية ، فانها لا تشغل في معجم لغة ما ، أية لغة كانت ، الا حيزا نسبيا ، رغم ما يذهب اليه من يرى أن أصل اللغة هو في ضوضاء شبيه بهذا النوع • مع لزوم اعتبار أن أكبر جزء من المعاجم هو تحكمي صرف في مقارناته هذه ، والا لاشتبهت ، أكثر مما هي عليه الآن ، جميع لغات العالم ، شأنها في ذلك شأن علامات الكتابة التصويتية في عدد من أنظمة

الكتابة التصويرية (Pictographique) المستقلة تاريخيا والتى تظهر تشابها بينا فيما بينها •

ثانيا ان المظهر الخاص الغة ، المتمثل فى كونها تستطيع أن تربط بين رموزها وبين جميع امكانيات التجربة الانسانية فى الميادين ، وعلى مستوى جميع عناصر العالم لهو أعظم شأنا مما سبق ، لانه يبوئها مكانة استثنائية • ولهذا السبب نرى أن جميع الانظمة الرمزية الاخرى تفسر بالنسبة لها ، ان اللغات تستطيع أن تمتد الى ما لا نهاية له ، وأن تتغير حسب أنواع متطلبات المتخاطبين •

يظهر هذا بوضوح فى الملاءمة الفورية لمعجم اللغة الاسبانية مثلا مع الاختراعات العلمية والتغييرات المصاحبة لها التى وقعت فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين •

هذا هو الذى يميز تمييزا مطلقا اللغة ، من جهة ، عن الرمزية مثل الايحاء ، ومن جهة أخرى عن نظام التبليغ الذى يستعمله النمل حتى ولو وصلت جاذبية هذا النظام ما وصلت وبلغ ايحاؤه للاسرار ما بلغ •

ولقد تنبه للقدرة العظيمة التى تملكها اللغة ولاتساع افق نفوذ سلطتها الكبيرة جميع المجتمعات •

ولاشك أن الشعور بهذه العظمة هو فى الحقيقة أصل السلطة السحرية التى يعطيها بعض الشعوب الى ألفاظ تدل على أشياء أو تشير الى حوادث ذات أهمية بالغة أو أفعال مخيفة •

اننا لنلاحظ هذا الموقف السحرى تجاه اللغة فى الاعمال

الخارقة للعادة ، الكثيرة الانتشار عند بعض المجتمعات التى لا زالت تنفعل بألفاظ أو عبارات معينة •

وانه ليسهل علينا هنا أيضا كما سهل قبل، حين أوضحنا عدم الاخذ بنظرية الفاظ المجموعة الاولى ، أن نبين تفاهة ما ذهب اليه أصحاب المجموعة الثانية • فنسألهم اذا كان لابد أن نعطى صوتا معبرا فى أمور الطبيعة ، فأولى شىء وجب أن يستأثر بتطبيق هذا النحى ، بعد الدلالات التى بها أصوات يعبر عنها ، هى الالوان التى تغدقها على الانسان الناطق الطبيعة بدون حساب • فلماذا لا نجد فى اللغة ما يعبر بطريقتكم هذه عن اللون الاحمر مثلا ؟

فاذا ما أجابوا — ومن يدرى ، قد يفعلون ! — « ان لفظة الاحمر لها جرس معبر حقيقة عن هذا اللون ، قلنا لهم • هل هناك مانع من حس أو وجدان أو عقل أو نقل او حتى من طبيعة يمنعنا ، اذا كان الامر كما تقولون ، من أن نطلق لفظة « الاحمر » على خضرة النبات أو سواد الليل الحالك الظلمة أو على بياض الثلوج المتراكم على قمم الجبال ؟

لا شك أنهم سيجيبون أن ليس هناك أى مانع من أى نوع كان الا التوافق والاصطلاح الحاصلين بين المتخاطبين فى اطلاق هذه اللفظة « الحمرة » على مدلولها دون غيره •

3، 2، 2 الصفة النوعية للغات الطبيعية للانسان

بقى علينا ، بعد أن انتهينا من ارساء مجال التعريف الذى نريده للغة أن نقوم بتحديد الصفة المخصصة للغات الطبيعية

للانسان اذا أردنا أن يكون تعريفنا فى مأمن من الزلل • ولانجاز هذا الامر ، لابد أن نبحث فى مسائل منها •

4 • 2 • 2 اللغة ليست التبليغ والتخاطب فقط

ولو كانت كذلك لدخلت ضمنها الخريطة الجغرافية مثلا التى تخاطب الناس وتبلغهم المعلومات ، كما يدخل معها أيضا كل الفنون التشكيلية بجميع أنواعها وسائر الموسيقى بكل أشكالها ومجمل الاشارات بما فيها من أصناف وألوان •

ان الخطاب اللغوى يحمل معه زيادة على مضمونه المتمثل فى التبليغ والتخاطب ، فوائد أخرى عديدة لا يعثر عليها الا فى كلام المتكلم الناطق • انه يتضمن معلومات ثمينة يبلغها الى السامع الذى يستطيع أن يعرف من جرس صوته ، زيادة على جنسه وسنه ، بدانته (Stoutness, Corpulence) وحالاته الصحية والمنطقة الجغرافية التى ينتسب اليها والطبقة الاجتماعية التى أثرت فيه ، بل حتى على حالاته النفسية التى يوجد عليها آن الحديث •

وقد يستفيد السامع ، أن استعمل بعض ذكائه ، من مخاطبه، حتى وان لم يرد هذا الاخير ذلك ، فوق ما سبق ذكره ، موقف محدثه مما يعرضه بنفسه ، رقة قلبه أو فظاظته ، خفة روحه أو ثقل ظله ، ويعرف منه كذلك مدى فهمه للاشياء وكيفية معالجته الامور ثم يحكم عليه ان بالصراحة أو بالنفاق ، بالطيبوبة أو الخبث ، بالفطنة أو بالتغفل الخ •

5، 2، 2 اللغة لا تنفرد وحدها باستعمال الاشارات التحكمية

انها لتوجد فى كل ما يقوم بمهمة التبليغ ، فالالوان من أحمر وأزرق وأصفر وأسود وأبيض ، والاشكال من دائرات ومثلثات ومربعات ، والخطوط الغليظة والرقيقة ، المتتابعة منها وغير المتتابعة لتكون فى قانون السير وفى الخرائط ورسوم المشارع أمارات تحكميه • واللغة ليست ، من جهة أخرى جوهرا مفرطا فى التجرد ، ولكنها ثمرة تاريخية معقدة نتجت عن النشاط الدؤوب ، العفوى للانسان ولا هى فى نفس الوقت مجرد أنظمة صرفة من اشارات تحكمية ، مادام جزء كبير من كلام الناس فى البلاغ يمكن أن يتحق بواسطة مفعول ايحاءات •

فى كلام الغاضب انقلق ايحاء عن حالته ، وان حاول اخفاءه عن السامع ورنة الفرح والسعادة والهناء فى نطق السعيد لا تخفى على اذن ، ودرجة دهشة واستغراب وحيرة منفعل بادية فى كلامه ، معبرة عن حالاته بمقدار دهشته واستغرابه وحيرته •

كما أن اللغة بمعزل عن اى رمز أو اشارة تستطيع أن تضيف الى البلاغ معلومات ثمينة باعتمادها فقط على الايقاع (Rythme) و التداوق : Débit مثال ذلك قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ••• الآية »

199 — الايـة 11 من السـورة 68 القلـم •

6، 2، 2 فوائد حول الموضوع

لاشك ان لـ F. de Sassure فضل العظيم فى توضيح هذا الامر ، ولذا أرى من المفيد اترجم فقرات مما اتى به فى هذا الصدد، قال، (200) « أن اللغة « تحكمى » تحتاج الى ملاحظة ، فلا يجوز لها ان توحى بفكرة أن «الدال»(201) مرهون بالاختيار الحر الفاعل المتكلم (202) (سنرى بعد قليل أنه يستحيل على الشخص ان يغير شيئا من الدليل (Signe) بعد أن يوضع فى مجموعة لغوية) .

نريد أن نقول أنه غير معلل (203) أى انه تحكمى بالنسبة للمداول الذى لايربطه معه اى رابط طبيعى فى الواقع (204) .

واذكر ، فى الختام تحفظين يمكن أن يقدما فى وجه تطبيق هذا المبدأ الاصلى .

اولا : يمكن ان نعتمد على الانوماطوبيات لنقول أن اختيار

---

200 — أنظر كتابه Cours de linguistique générale ، صفحة 101

201 — أنظر الحاشيتين 183 و 184 فى 2،1،23

202 — اترجم بـ « الفاعل المتكلم » Sujet parlant

203 — أرى أن أحسن ترجمة للعبارة الفرنسية HImmotiv هى « غير معلل »

204 — لقد اتهم ، فيما يتعلق بفكرة « التحكمية » كبديل لغياب تعليل مدلولات لفظين مختلفتين بالنسبة « لدال » واحد الذى نقدر انه قار متشابه ، أقول اتهم F. de S. بانه غير متجانس .

وانتا لنعتقد ، من جهتنا أن العالم السويسرى الكبير كان طيلة حياته يدافع عن الفكرة القائلة بانه لا توجد أسباب طبيعية معقولة بين المادة الاكوستيكية والدلالة . (الرجاء ، لمعرفة هذه القضية المهمة عند F. de S. الرجوع الى بحث de l'arbitraire du signe وكـذا Bereviste فى مقال له تحت عنوان Nature du signe linguistique المنشور فى العدد الاول من مجلة A. ct a lingustica سنة 1939 (أنظر الحاشية رقم 141 صفحة 446 من كتاب G.L.G. وكـذا الحواشى 136 و 137 و 138 فى الصفحات 442 و 443 و 444 من نفس الكتاب .

الدال لا يكون دائما تحكميا وان هذه الاونوماطوبيات لا تكون مطلقا عناصر عضوية من نظام لغوى، وان عددها، زيادة على ذلك، ليقل بكثير عما نعتقد ، ان كلمات، مثل Fouet و (205) Glas لتستطعن أن تثرن بعض الاذن برنينهن الموحى ، الا أنه يكفى لنرى أن ليس لهن نفس الصفة من البداية ان صعدنا الى صيغتهن اللاتينية (فــ Fouet آتية من «Hêtre» Fagus و Glas آتية من Classicum) نصفة اصواتهن الحالية أو بالأحرى هذه التى نمنحها لهن ما هى الا نتيجة عرضية للتطور الصوتى .

أما بالنسبة للاونوماطوبيات الحقيقية (تلك التى من صنف glou-glou و tic-tac الى آخره) فليست قليلة فقــط ، وانما يعد اختيارها « تحكيما » أيضا شيئا ما ، لانهن لسن الا تقليدا تقريبا ونصف اصطلاحى لبعض الضوضاء . (قارنوا بين اللفظ الفرنسى Ouaoua والالمانى Wauwau) ثم أنها ، زيادة على ذلك تتبع ، بمجرد دخولها الى اللغة التطور الصوتى والصرفى الى آخره ، الذى تخضع له باقى الكلمات Pigeon من اللاتينية Pipio الآتى هو من اونومــاطوبى) ، وهى حجة قاطعة ، أنهن فقدن شيئا من الصفة الأولى ليلبسن حلة الدليل اللغوى العام الذى هو غير معلل .

ثانيا : الهتاف (206)، وهو قريب جدا من أونوماطوبيات

205 — كان لابد من الاحتفاظ بالامثلة كما ذكرها F. de S. ليبقى النص سليما والفكرة تامة .

206 — لابد من ابداء ملاحظتين . اولاهما متعلق بالترجمة . ذلك أنى اخترت لفظــة « هتاف » وجعلت منها اسم جمع لاترجم به جمعا فى اللغة الفرنسية ، فلا يعدو أن يكون هذا اتفاق بينى وبين قرائى . ثانيهما ، كثير من اللغــويين غيــر متفقين مع رأى F. de S. فيما يتعلق بالهتاف ويرون أنه فعلا اصطلاحى وان كان غير معلل .

ليدفعنا هو أيضا الى ابداء ملاحظات شبيهة بالتى سبقت وهى غير مضرة بموضوعنا .

واننا انريد أن نرى عبارات طوعية من الواقع ، أملتها ، هكذا الطبيعة .

الا أننا نستطيع — بالنسبة لكثير منها — أن ننفى وجود علاقة بين المدلول والدال .

يكفى ، فى هذا المضمار ، أن نقارن بين لغتين لنتبين كم تختلف هذه العبارات فيما بينها (فاللفظة الفرنسية aie ! تقابل اللفظة الالمانية au !)

واننا لنعرف ، من جهة أخرى أن كثيرا من الهتاف بدأ بكلمات لها مدلولها المحدد (Diable ! mordieu, mord dieu)

وختاما أن للاونوماطوبيات، وللهتاف أهمية متوسطة ، وأن أصلها الرمزى لمشكوك فيه .

7. 2. 2 معالجة القدماء لهذه الفكرة

أعتقد أن أحسن من عالج هذه الفكرة من القدماء هو اللغوى ابن جنى ، قال (207) « اعلم أن هذا موضع شريف لطيف . وقد نبه عليه الخليل وسبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته .

وأضاف على ذلك Vendryes و Wackernagel أن الهتاف هو خارج النظام اللغوى ، ومن هنا اعتقد البعض أنه يصعب فى بعض الاحيان كتابته .

207 — ابن جنى . الخصائص الجزء الثانى صفحة 152 .

قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صر، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر. وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر .

وقال سبويه (208) فى المصادر التى جاءت على الفعلان : أنها تأتى للاضطراب والحركة نحو النقزان (209)، والغليان ، والغثيان . فقابلوا (210) بتوالى حركات المثال توالى حركات الافعـــال .

ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه . وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير ، نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والململة ، والقعقعـــة (والصعصعة (211))، والجرجرة ، والقرقرة . ووجدت أيضا (الفعلى) فى المصادر والصفات انمـــا تأتى للسرعة ، نحـــو البشكى ، والجمزى والولقى ، قال رؤية :

أو بشكى وخد الظليم النز (212)

وقال الهـــذلى (213)

كـــأنى ورحلى اذا هجرت على جمزى جازىء بالرمال
أوا صحم حـــام حـــراميزه حزابية حيـــدى بالدحـــال

---

208 ــ أنظر الكتـــاب الجزء الثانى . صفحـــة 218 .
209 ــ يقـــال نقز الظبـــى : وثب صعـــدا .
120 ــ اذا رجعنا الى الكتاب الجزء الثانى ، صفحة 218 لاحظنا أن ما كتبه هنا ابن جنى هو من كلامه .
211 ــ التحريك والقلقلـــة .
212 ــ يقـــال ظليـــم نـــز : لا يستقر فى مكـــان .
213 ــ هو أميـــة بن أبى عائذ كما فى اللســـان فى جمز ، وانظر الهذليين 2 / 176 .

فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ـ أعنى باب القلقلة ـ والمثال الذى توالت حركاته للافعال التى توالت الحركات فيها.

ومن ذلك ـ وهو أصنع منه ـ أنهم جعلوا (استفعل) فى كثير الامـر للطلب ، نحو استسقـى ، واستعطـم ، واستوهب ، واستمنح ، واستقدم عمرا ، واستصرخ جعفرا • فرتبت فى هذا الباب الحروف على ترتيب الافعـال • وتفسيـر ذلك ان الافعال المحدث عنها انها وقعت عن غير طلب انما تفجأ حروفها الاصول ، أو ما ضارع بالصنعة الاصول •

• • • • • • • 215 • • • • • • •

ومن ذلك انهم جعلوا تكرار العين فى المثال دليلا على تكـرار الفعل ، فقالوا : كسر وقطع ، وفتح ، وغلق • وذلك انهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفعل واللام ، وذلك لانها واسطة لهما ، ومكنوفة بهما ، فصارا كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونهـا •

ولذلك تجد الاعلال بالحذف فيهما دونها • فأما حذف الفاء ففى المصادر من باب وعد ، نحو العدة ، والزنة ، والطدة ، (216) ، والندة ، والهبة ، والابة • وأما اللام فنحو اليد ، والدم ، والفم ،

---

214 ـ يريد بالحمزى : حمار وحش ، وجازىء : يستغنى بالرطب عن الماء ، والاصحم من الصحمة وهى سواد الى صفرة • ويريد به حمار وحش ، وجراميزه : جسده ونفسه ، يحميها من الصائد ، حزابية ، غليظ • حيدى يحيد من شرعته. والدحال : جمع الدحل ، وهو هوة ضيقة الاعلى واسعة الاسفل •

215 ـ يريد بالمثال البنـاء •

216 ـ والطدة من وطد والصدة من وصد يقال وطد الشىء ووصد : ثبت

والاب ، والاخ ، والسنة ، والمائة ، والفئة وقلما تجد الحذف فى العيــن (217) •

8، 2، 2 اللغة منفردة بالصفة الخطية

لقد تعرض علماء اللغة العربية قديما لهذه القضية فى كثير من مواضيع بحوثهم ، سيما فيما يتعلق بالنظم والمنظوم فى القرآن الكريم وفى أبواب عديدة أخرى (218) •

وأول من أثار انتباه الناس فى أوربا ، بشكل علمى الى هذه الصفة الخطية للغة العالم اللغوى Saussure الذى قال فى دروسه :

« ان الدال وهو من طبيعة سمعيه يجرى فى الزمن وحده وله الطبائع التى يستمدها من الزمن •

أولا : يمثل امتــدادا •

ثانيــا : وان هذا الامتداد ليقاس ببعد واحد • انه خط

يعد هذا مبدأ بديهى الا أن التصريح به قد أهمل دائمــا ، لربما لانه ظهر أنه بسيط مع أنه أساسى ونتائجه لا تحصى كل حيوية اللغة متوقفة عليه •

فبينما يمكن أن يقدم الدالون المرئيــون (الاشــارات البحرية) وغيرها مواضيع معقدة فى نفس الوقت على أبعاد كثيرة ، لا يتوفر الدالون الاكوستيكيون الا على خط الزمن •

217 — من ذلك السه وأصله السنــة ومذ واصله منذ •
218 — سأتعرض لهذه النقطة بتفصيل فى جزء آخر لاحق بحول الله

لذا نرى عناصرها تتقدم الواحدة بعد الاخرى ، انها تكون سلسلة .

تظهر هذه الصفة بمجرد ما يقع تمثيل الدالين بالكتابة وبمجرد ما يعوض الخط الفضائى للعلامات المكتوبة بالتتابع فى الزمن (219) » .

فاذا ما أخذنا الصوتات / ت / ، / ب / ، / ع / استطعنا أن نكون منها « تعب » أو « تبع » أو « بعت » أو « عبت » الخ ولكل واحد من هذه الدالين (221) دلالة معينة أوحى بها الترتيب الخطى للصوتات . يتضح اذن من هذا أن الترتيب النسقى للصوتات داخل الدال له الدور الخطير فى تحديد دلالة الالفاظ .

وحين ما أقول « اعتدى الاسد على الرجل » يكون له معنى غير المعنى الذى يوحى به المقطع اللغوى « اعتدى الرجل على الاسد » لهذه الصفة الخطية التى تنفرد بها اللغة .

9 ، 2 ، 2 الدال اللغوى منفرد بالصفة الحدية

يتكون البلاغ من جهة من وحدات موحية مختلفة بعضها عن بعض اذا ما اعتبرنا البلاغ على المستوى التقطيع الاول بمعنى أنه يستعمل على وحدات دالة يعاكس بعضها البعض دون

---

219 — دروس فى علم اللغة العام ، صفحة 103 .

220 — أقابل بصوته بضم الصاد لان فيها قدر من الاصوات والضم فى العربية فى مثل هذه الاوزان يدل على « القدر » والفتح على « الوحدة » لذا سأخصص فى الاجزاء القادمة للمصطلح « صوته » بالفتح .

221 — اجمع مصطلح الدال (أنظر الحاشية رقم 183 جمعا مذكرا سالما لا تفادى اللبس —

ما تدرج كما يتكون ، من جهة أخرى من وحدات مميزه مختلفة بعضها عن بعض ، لا توحى بمعنى اذا ما اعتبرنا البلاغ على مستوى التقطيـع الثانـى •

وعلى هذا نستطيع أن نقول أن مفهوم بلاغ ذى دلالة بين بين غير مفيد على الاطـلاق •

اذا سمعت أحدا يقول مثلا : « جاء رجل » فلا يتصور أن أفهم « جاع رجل » وسأظل أفهم هذا الفهم ولو أمال القائل الهمزة كثيرا نحو العين الى أن يقلبها قلبا تاما عينا ، ذلك أنه لا يمكن أن تكون الصوتة بين بين فلا هى عين ولا هى همزة بل لابد أن تكون الهمزة فقط أو العين لا غير • أما + فلا يمكن•

10 ، 2 ، 2 الصفـة المـزجيـة للغـة

سندرس هذه الصفة بتفصيل عندما نتعرض ، فى جزء لاحق ان شاء الله ، الى الثنـائية : سليقه / استعمـال ، أو كفاءة / قياس ، أو لغة / كلام • لكننـا نستطيع أن نذكر من الآن ، واعتمادا على النتائج التى وصل اليهـا Katz و Fodor اللذان يريان أن على البحث اللغوى أن يعبر عن المظهر الخلاق للحديث وهما يعنيان بذلك تلك المعلومات التى تسمح للمخاطب أن يستعمل ويفهم أية جملة فى لغتـه ويعى حتى تلك التى لم يسبق له أن سمعها فى حياته كما أن دور هذا البحث يتمثل أيضا فى وصف الكفاءة (السليقة) للمخاطب• بمعنى أننا ، حتى اذا كنا لا نتوفر الا على أجزاء من الاستعمال وجب علينا ، انطلاقا من مجموعة هذه الانشطة الاختبـارية

المعروضة علينا ، بشكل عشوائى أن نعلن عن القواعد التحتية التى نتحكم فيها • وبهذا نتمكن من تحديد شكل كفاءة من نوع الكفاءة « الدلالية » التى تختلف طبعا عن الكفاءة التى أعلن عنها Chomsky •

فلم يبق الغرض اذن من هذا البحث الاعلان عن الكيفية التى بها « ننتج » الجمل بقدر ما صار البلوغ الى الكيفية التى بها « نؤول » الجمل •

وحتى اذا كان المؤلفون يحاولون ، جادين ، أن يحددوا هذه الوظيفة فى نطاق « محايد » فانهم يركنون الى حصرها فى تنمية « الذهن » لا غير •

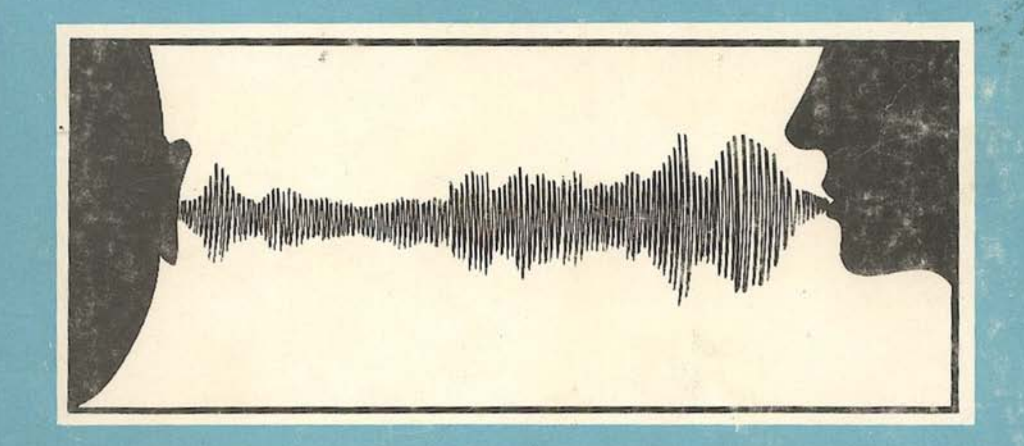
بهذا يتوصلون الى تحديد الصفة المزجية للغة • وهى الصفة التى تستطيع وحدها أن تبين لنا أن مخاطبا ما يفهم جملا تتجدد باستمرار •

من أفكار هذه الفترات الكثيرة يتكون تعريفنا للغة •

الفهرست

الفصل الثانى

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطابع دار النشر المغربية
بتاريخ 31 يوليوز 1977 .



نشر وطبع
دار النشر المغربية
5-13 زنقة الجندي روش
الهاتف: 24.51.47
الدار البيضاء

الثمن : 8 دراهم